رواية

مَجْنونٌ مُتَّفَقٌ عَلَيه

حَيدَر جاسِم مُحمّد

سرشناسه: الشکور، حیدر، ۱۹۶۹- م
عنوان و نام پدیدآور: روایه مجنون متفق‌علیه/ حیدر جاسم‌محمد.
مشخصات نشر: قم: دارالمحبین،۱۴۴۵ق.= ۲۰۲۴.
مشخصات ظاهری: ۱۶۶ص.؛ ۱۴۱۵×۲۱سم.
شابک: ۹۷۸-۶۰۰-۱۳۱-۲۶۵-۶
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت: زبان: عربی.
موضوع: داستان‌های عربی -- قرن ۲۱م.
Arabic fiction -- 21st century
رده بندی کنگره: PJ۸۳۹۱/۲
رده بندی دیویی: ۸۹۲/۷۳۷
شماره کتابشناسی ملی: ۹۵۹۶۱۶۸

دارالمحبین(للطباعةوالنشر)
هاتف:۰۹۸ ۲۵ ۳۷۷۲۳۰۱+ نقال:۰۹۸ ۹۱۲ ۱۵۲ ۰۳۵+
Email:Mohebin_pub@yahoo.com

عنوان الكتاب:	رواية مجنون مُتَّفَق عَلَيه
تأليف:	حيدر جاسم محمد
الناشر:	دار المحبين ((للطباعة و النشر))
العدد:	٧٥
المطبعة:	ديجيتال
الطبعة:	الأولى
سنة الطبع:	٢٠٢٤م / ١٤٤٥هـ
رقم الايداع الدولي:	٦-٢٦٥-١٣١-٦٠٠-٩٧٨

الإهداء..

إلى زوجتي وعائلتي..

التي صبرت كثيراً..

على عزلتي،

وانطوائي بين عوالم الأدب،

أخشى أنها لم تكن عوالم حق.

في البدء..

لا أعني أحداً، ولا أفكر بذلك، ولو...

ليس من حقك أن تُزَايد عليّ في تدِيُّني ووطنيتي وإنسانيتي وجنوني.

أنا حُرٌّ برأيي.. إن رضيتَ أنْ تكون عبداً فذا شأنك.!

دين السلام

كان يحدق بالطائرة الأمريكية بعينيه المجردتين، فبادرَتهُ ذات الشعور بصاروخ (اي جي أم- 88 هارم). كان يشقُّ لباس الفضاء الصوتي، منقضّاً كالنسر مع الجاذبية على الفريسة، ليستقبله (خماس العبد) بصدرٍ رحب، وهو يهذي بقولٍ لطالما عَلَق بلسانه: "ما زال البِيْض يَحلُم، يعيش السود في كوابيس".

**

إنه ابني.!!

لم أسمع سوى هذه الكلمة، وأنا أنظر إلى الطلقة وهي تلفُّ في ماسورة المسدس مع تقدم سريع في أجزاء من الثانية، بل في اللا زمن، في لحظة من توقيت العدم؛ كانت تقول لي: قل قولتك الأخيرة، أدعُ، تمنَّ، توسل؛ قل أي شيء.

لم يكن في بالي شيء، حتى عينيّ المحدقتينِ بالدنيا ما كانتا لتربيا إلى السماء... السماءُ هي الباب الوحيدة التي من الممكن أن تُطرَق بالأيادي الآثمة؛ أحجمت عنها.!

لم يفكر (العبد) هذه المرة، ومتى فكر العبد.؟! لا تخدعكم حجم هذه الكلمة وثقلها عند الله والمؤمنين؛ ما كنت يوماً عابداً. أنا عبدٌ وابن عبد أسود اللون لعين، أما أبي فهو لم يكن عبداً فحسب، بل كان اسمه عبد، كعبد اللات وعبد العزة؛ مع أنه عبد استثنائي اسمه عبد ربيع..

يقولون: خيرُ الأسماء ما عُبد وحُمد. إلا هذه الاسماء كلها شيطانية.

فبم أدعو وفيم أتمنى، ولِمِ أتوسل.! وقد ضغط الزناد على الطارق، وخرجت الطلقة من حجرة الترباس؛ وقضي الأمر.

لم أسمع إلا طرقة الإطلاق.. دوووووم.. وأنا مغطى بالدم، وَمُوَشَّى ببقايا لحم وعظم.

**

واهمٌ من يدعي أن الموت عقاب، الحياة هي بلاؤنا الأكبر والعقاب.

حاشا الله.. الله أكبر وأعظم من أن يعاقب عبده المبتلى بالحياة، المجبر بالنشأة، المتورط بالوجود.. الله كريم إلى حد لا يحد، إذ شاء أن يعاقب، عاقب تأديباً وتذكيراً. لكن الزمن هو من يتكفل بعقوبتك وقهرك وإذلالك، شئت ذلك أم أبيت.!

الزمنُ بماضيه وحاضره ومستقبله تاريخٌ ظالم، دائماً ما يكون أحادي الجانب.. الشعوب فيه مجرد زروع موسمية الحصاد، الزمن يختطف الجيل بعد الجيل، ليذهب بهم إلى فرامة الإتلاف. هكذا كان خليف

(المجنون) يعتد برأيه، ويحاكي اختلاجات حنون الأسمر، أو كما يفضل نعته بـ(العبد).

أنت تنظر للحياة بفظاظة وتشاؤمية، حتى جنونك يبدو مختلفاً. هكذا صدّه حازم (المعوق) مع أنه على شاكلة صديقيه حذو القذة بالقذة. فهو دائماً ما يكرر ازدراءه للواقع بقوله: (مَنْ شاكل القوم، لا يُشكَل عليه).

يتماهى خليف بالتعليلات: أنا أدرك جيداً أن العبودية وإن كانت قديمة لقدم التاريخ، لكنها لم تكن من سنن الكون، إلا الحرية فهي سنة كونية مبنية بطبيعتها على العبث. قامت الحكومات بتشذيبها وتقليمها قبل أن تولد الديانات، وتقتطع الجزء الأكبر من المتعة. ما لا يعلمه المتفقه؛ أن الدين سلام نفسي. (المجنون يتفلسف) ختمها بصمت.

حنون ساخراً: العبودية والحرية مثلهما مثل الحياة والموت، كلاهما سنة. واختلف كثيراً مع من يقول: إن الشعوب تصنع الطغاة. الشعوب مصنوعة ومقولبة بحكم الظروف؛ الشعوب تتمنى وحسب.

أنت عبد مركّب. هكذا جاءه الرد صاعقاً من خليف المجنون. وأردف: أنت خائف من كلِّ شيء، من الله والشيطان، من النور والظلام، من الحب والكره، أنت كَلٌّ على نفسك وأهلك ومولاك...

قاطعه حازم المعوق مبررا خوف صاحبه: من خاف آمن، وحنون قد رأى ما رأى من المصائب ما يكفي، وكأن أيام الحرب الطائفية اقتصت

منه بالذات، خاصة وهو لا ينتمي بأي شكل من الأشكال لا لهذه الفئة ولا تلك. كما يقول دائماً: مالُ العبد والطائفية.؟!

**

كلما يمر ذكر الاقتتال الطائفي، يُصعق (حنون) العبد – ومن التلطف أن يُسمى الأسمر– ويحس بغشاوة العمى الذي أصابه وقتها. وكان دائما ما ينعتها بسكرات الموت... لا يحب ذكر هذه الحكاية، ولا قصها، ولا يرضى لأحد أن يُذكّره بها. ولطالما احتدم الخلاف مع أمه، كلما جاء ذكر أبيه تصريحا أو تلميحا. فقد كانتِ المُلام الأول فيما حدث والاخير.

وهذه الحكاية كما حكاها حنون في أولى أيام وفاة أبيه في سرادق العزاء بين جمع كبير من المعزين وقد أبى ذكرها مرة أخرى وللأبد:

أيلول 2006

يتراءى لي أن الشارع أسود، والجو مكفهر بالظلام والوحشة، رغم أن الشمس ما زالت عالقة في كبد السماء.. الجو يوحي بكآبة مفزعة، الخوف يتغرغر في الحنجرة، حتى الصوت يكاد لا يسمع سوى غمغمة.. أطلُّ من نافذة سيارة الشيفروليه الأمريكي، غبارية الخارج، ترابية الداخل.. أحدق بالشارع اللاهث، وهو يركض على امتداد الأفق، والأعمدة تتساقط

تباعا في أرض صفراء، أكل الرمل مروجها، كلما تخلف بيت، استقام آخر في مرأى البصر. قرى متناثرة هنا وهناك، رعاة ومزارعون يكدحون في وجه الرمال التي تحاصر الحياة من كل مكان.

انظر لأبي المسكين، هي المرة الأولى التي أراه أبي، لا أعرف بما يفكر، لكني أحس بأنه يلعن أمي؛ ويفكر في قتلها. لا أعرف تحديدا كيف أغرته بالذهاب إلى بغداد في هذا الوقت تحديدا، لأجل إعادة راتبه التقاعدي الذي توقف فجأة، لأسباب مجهولة، لا تقل عن كونها إجراءات روتينية، قد تكلفه الكثير، وربما عمره او عمري او كلانا؛ فلتفرح الشمطاء.

حملقت طويلا بهيئته الباردة، والذي يبدو كالميت بأنفاس غالبة، يحاول أن ينام، يتصنع ذلك، يغمض عينيه مرة، يرجع بظهره للخلف، وتارة يسند رأسه على المقعد الأمامي. لم يلتفت لي، كأنه خجول أن أرى خوفه، وهو لا يعلم أن الخائف وحده من يرى الخائف بعين مجردة من التعقيد.

كلما تساقطت المدن وتجردت الأرض من روح الحياة، ومن الخُضرة، إلا من عيدان القصب والادغال، كلما كان العبء أكثر وقعا على النفس.. وكلما بانت تباشير العاصمة، كانت مناشير الموت تحد أسنانها.

حدثني كثيرا ونحن في مدن الجنوب، المدن المؤمنة للطرق بشكل جيد.. أخبرني بأمور وأشياء كان قد أخفاها لنفسه، وكأنه عاهد العفاريت الحمر ألا يبوح بسر منها. كأنه يلقي وصيته شفاهاً.

لا أخفيكم، أن أبي حتى هذه الساعة يعتقد أن نظام البعث هو الحاكم، وكأن صدام غائباً لدواع تقتضيها الحكمة الإلهية، وان المخبرين لا زالوا يمارسون طقوس التقارير اليومية؛ وللحيطان آذان من اثير.!

فآخر مرة قلت له: إن النظام...

قاطعني حانقا: أنت غبي.

أنا غبي، كلما أذكر هذه الكلمة، أحس بمدى صدقه؛ وإلا كيف يكون الغبي إذن.؟!

الطريق أسود، والسائق أحدب يقود سيارة وسخية اللون أكبر عمراً مني، وفي يوم أسود... آثر السائق حرارة الجو، والهواء الخارجي المزعج الذي يقرقع النوافذ، المزججة بعضها بالبلاستيك المضغوط، وهو يدخن كمعامل الطابوق، بحلقه الأسود وأسنانه الخريفية الشكل؛ يمضغ التبغ كعلكة اللبان.

كان في مقدمة السيارة رجل أشيب واجم الوجه بمعية ابنه، الذي بدأ يهمس همساً فضوحاً عن صفقة عمل خاسرة.

كم أكره استراق السمع، والتلصص في المرايا على الوجوه؛ لكن الفضول عذول.

سمعت الرجل يقول لابنه: لأول مرة أرى ابناً يسرق أباه.

قلت في نفسي لو كان أبي يملك مالاً، لما تأخرت في سرقته.. لكن أبي لا يملك سوى راتبه التقاعدي المعلق برفوف الروتين السائدة في دوائر الدولة.. حتى البيت الذي مازلنا نسكنه كان باسم أمي.. أمي التي تملك البيت والاثاث وأبي وأنا وزوجتي؛ وحتى ذلك المجنون – خليف – الذي يحسب نعل المعزين.!

كان الشاب الآخر الجالس معنا في (الحوض الخلفي) للسيارة – كما يسمونه – يبدو هائماً في دنيا الرومانسية، فهو يتنقل بهاتفه من أغنية إلى أغنية، على الرغم من استخدامه سماعة الأذن – الهيدفون – إلا أن صوت الأنغام كان يشغل حيزا كبيرا في مسامعي.

بالفعل يستحق التهنئة بشدة على هذا المزاج الرائق.. أنا لا أحسده فليس من عادتي أن أحسد فردا، بل دائما ما أحسد جماعات، أحزاب حكومات مؤسسات؛ هؤلاء كلهم يستحقون بذل الذنب.

لا تسألني لِمَ ذلك، أنت بمجرد أن تنظر بسحنتي المقلوبة ووجهي الكالح؛ ترى الأجوبة مطرّدة.

لا أدري لمَ جرني الحديث بالإسهاب في التفاصيل، ربما اذكرها في وقت آخر، أو لعلي لا أذكرها مطلقا... يقولون من يذكر الموت يذكره، وأنا أكره أن أموت، بل وأخاف ذلك، ولِمَ لا أخاف، وقد أُخبرنا الدنيا بحلوها ومرها؛ فكيف نعرف ما ينتظرنا في الجانب الآخر... مجرد ما تسمع كلمة المجهول ينتابك خوف معلوم، فكيف إذا كان عالماً آخر ملغوماً بالمخاوف.؟!

من لم يخف الموت هو ذاك المعتقد أنه ذاهب للعدم، وأنا أخشى ما اخشاه أن لا عدم؛ الكلُّ موجود وأن كان بحكم العدم.!

**

فزَّ أبي مذعوراً، بعد سِنة خاطفة سرقته للحظات، وهو ينفض عن نفسه ذيول كابوس مربك كادت تخنقه هلعاً، صائحاً: إنه ابني.. إنه ابني.!

استغربت هل انا من ولجت في حلمه، أم كان أخي (خماس) الذي تصدى للطيران الامريكي بابتسامته الساذجة. خاصة وان علاقتهما كانت واقعة تحت احكام الحرب الباردة.

تذكرت قبل بضع ساعات وأنا واقف على قبره، قوله الذي ما انفك يردده على مسامعي حتى بدا كأنشودة: أبوك جبان وأمك دجالة وانت عبد وسط احرار ناقمين.. ما اثارني فعلاً أن ابي كان باركاً على ركبتيه عند القبر كمن يكمن لعدو، أو كالذي يحاول ان يبول خفية.. ترصدته

عن كثب لأسمع مناجاته مع ابنه البكر: ابن عاق! عشت حقيراً ومت حقيراً وستبعث – إذا كان ثمة بعث ونشور لأمثالك – خاسئاً وحسيرا، أعجب كيف سيعاد تركيبك وقد تناثرت اشلاؤك ألف قطعة وقطعة، حتى جمعوا منها ما جمعوا مع بقايا حطام وتراب في كيس أقل من خمسة كغم، هذا الجنتلمان والعبد الابهة كله لا يعرف لحمه وعظمه من اشلاء كلبة طالها الصاروخ تحت توقيع السماء. لَكَم أثلج قلبي مصابك الذي فرحت له من اقصى أعماق الروح، ولا أنسى بهجة أمك وقد رقصت في ليلة الوحشة ولا رقص نجوى فؤاد. لا اخبرك كم أنا سعيد بفقدك، واسعد أكثر وأنا ابول على قبرك. وارخى سحاب بنطلونه وبال على شاهد القبر. وهو يردد تعويذته السحرية: فليبرد قبرك يا بني؛ أو فليحترق.

التفت الى ابي مسحت رأسه، اعطيته عبوة ماء كان الهواء الحار قد أفقدها ريعها البارد. قلت: أما زلت ترى أخي خماس.؟ حدق بوجهي ب– (سونار) عينيه الفاحصتين، قال: هل أنت خائف.؟

أجبته: حبذا لو طرحت سؤالاً آخر.

أنا لست خائفا، بل أنا ميتٌ من الخوف، حتى وإن وصلنا إلى بغداد سالمين، وعدنا منها بسلام، سيكون للخوف أثر كبير في نفسي، يلزمني عمرا كاملا للنسيان؛ وهو – كما تعلم – عمر واحد والكلُّ يجر به من طرف خفي.

قال السائق: اقرءوا سورة الفاتحة لتسهيل الأمور المتعسرة، نحن على مشارف العاصمة؛ هنا ما يُسمى بمثلث الموت.

لأول مرة أشعر بدوار، لا أعرف إن كان هبوط بالضغط، أو بالسكري... أحسست كأني أتلاشى، أذوب كتمثال الشمع لم أقو على فتح عيني اللزجتين.

أيقظني أبي بيده كمن يحرك جثة حميم: اقرأ الفاتحة.

لِمَ.؟ لا.. لا أقرأ، ولا أكتب عن كل شيء يمت للموت بصلة، هل أنا مجنون لأنعي نفسي، ما زال في العمر بقية، وبقية طويلة، ما أزال في أوج شبابي، في عمر الصبا بعد، في العشرين.. لم أشبع من زوجي بعد، وأظنها لم تشبع مني، أموتُ وأترك طفلتي تقرأ الطاس، وتضرب الفأل، كدرويش صغير يرسم بالطلاسم أقدار الجهالة.

أنا الذي أحب كل شيء ما عدا النكد.. أحب الحياة كلها، ببحورها الهائجة، بسمائها الغاضبة، بترامي القارات، واختلاف اللغات والأجناس، تبدو لي في كل شأن أجمل فأجمل؛ وأنت تمنيني بالموت والفناء؛ يا لقبحك. فعلاً ان جمال الحياة يبقى بالشراكة، إلا الموت وحده، فهو مشروع فردي.

لا أحد يقول لي اقرأ، من يريد ذلك فليقرأ لنفسه ما يقرأ.. أنت تدري يا أبّ لِمَ لا أصلي.؟ لأني لا أحب التعلق بالآخرة.. تقول لي اقرأ الفاتحة، لا أعنى بحفظها، كتبتها عشرات المرات لأطفال الحي، نزولا على رغبة

والدتي المعتاشة من الخرافة والشعوذة.. حتى أني أذكر مرة، جاءت امرأة مكلومة بزواج رجلها من امرأة ثانية، وطلبت منها أن تعيده إليها ولو بالسحر الأسود.

فقلت لها بسري: وهل ثمة أسود من وجه أمي.

لا تتصوروا أني أكره أمي، ولم أنس يوماً كان فضلها عظيماً عليّ، فهي وإن كانت امرأة عرافة، أو بصارة أو دجالة، فهي كذلك امرأة حكيمة، ومدبرة منزل من الطراز القديم، على النمط الفارسي... عارفة كل خفايا البيت، وما يدور في الغرف المغلقة – وان كنت أعني بذلك زوجتي – أقول الحق: إن زوجتي من النوع المفترس، لولا أن أمي قامت بترويضها، أو بالأحرى كسّرت أنيابها.

لكن إن سألتم هل تحبها.؟

إن كانت امي او زوجتي، فلا أخفيكم السر: لا أظن.

**

في كل مرة أوعدكم بالاختصار وأحنث بوعدي، وأنسى نفسي واسترسل، أنا ثرثار بالفطرة، طبيعتي إن لم أهذر بالكلام أغني... كيف وأنا أرى فيكم من حسن الإصغاء ما أرى، وأقول في نفسي: (منذ متى استمعتم لعبد أيها الحقراء العنصريون). ختمها بصمت.!

بينما كان خليف المجنون يستمع له، فيرد عليه بقوله: لا أسوأ من عبد أحمق يتفلسف. وظل يرتب النعل ويمسح بعضها، وهو يسمي النعل بأصحابها: هذا حازم (الربل)، وهذا هودي (القندرة)، وهذا ملاّ (نعل).. ويحكُّ بذقنه الشعثاء، وعيناه محدقة بأنواع النعل، ويفرد نعلاً ويرمي آخر، وهو يقول: ماذا صنع الحظر والحصار الظالم بهذا الشعب المسكين، لدرجة أن رجع به ألف سنة إلى ما قبل النهضة البشرية لخصف النعل واستخدام القباقيب؛ كم من عدو حاقد أنسر وابتهج في ذلك، وكم من صديق صامت حزن. ومسح كثيراً على حذاء (حنون) الموروث عن أبيه. وهو يقول: لم يبق منك أيها العبد سوى إرث بال.

ثم صاح بأعلى صوته: نعل أبي العبد حصتي.

فنهض له رجلٌ كبيرُ السن وزجره بهدوء: خذْ حصتك واذهب.

المجنون بنزق: لا أذهب، أنا احرسُ النعل، فاللصوص دائماً ما يتواجدون في المآتم، إذا لم يسرقوا لحماً، يسرقون النعل.

الرجل المسن بسخرية الكبار: حقاً أنت مجنون تحرس النعل وتترك اللحم.

خليف، متماه: لا أحب لحم الحمير.!

حملق به العجوز منشدهاً: ماذا.؟

خليف ببلاهته الغالبة: انهم أصدقائي، اعرفهم جيداً؛ لحومهم تورث الصفنة.

عاد الرجل الكبير إلى كرسيه، وهو يجمجم بعبارات غير مفهومة، إلا أنها توحي، أن مخاطبة المجنون ضرب من جنون.

وأشار رجل هرم بعينين كليلتين مغطاتين بأحاد من الرموش إلى حنون: أدخل في صلب الموضوع.

لم يدر حنون ما العبرة من وراء حكاية فاجعته بأبيه، ولما هذا التشويق في تراجيديا الحكاية.. الميت وحده من يعلم بمأساته. والناس في الأعم الأغلب لم تتعظ، وان فكرت بالأمر – إذا فكرت – فهو تفكير سطحي ولحظي، لم يمكث طويلا في المخيلة.. مشكلة الموت أن كل الناس تموت رغم أنوفهم. والحزن لا يعمر كثيرا في النفوس، وإن كان يسلم منه جزء كبير.. ففؤوس المآسي تكسر زجاج النفس، لكن النفس معتادة على الألم بطبيعتها؛ وقابلة للتحديث.. المتقوقع الوحيد ذلك (المهوال) النادب، الذي دائما ما يسكر في أطوار الحزن وألحان الموت، يؤجج النفوس والعيون؛ ويستدر الجيوب الغبية.

فجأة وإذا بنا بسيطرة وهمية، تعترض الطريق بسيارتي شحن صغيرتين، محملتين برشاشتين متوسطتي المدى، وجنود بزي أفغاني متوشحين شواجر الأعتدة وبنادق أم4 معممين بعمائم سوداء ذات ذيول،

مطلقي الشعور واللحى، مخضبين بالحناء كأنهم آلهة الموت في عصور ما قبل النور.

توقف السائق وألتزم الصمت.. وأخذ أميرهم يطالعنا من النوافذ، نظرة تفحص الوجوه. فأشار إلى الرجل الكبير وابنه الراكبين في المقدمة: انزلا.

ترجلا من السيارة... تم تفتيشهما بشكل هادئ دون أن يبديا أي اعتراض؛ وكأن في القصة أمراً مبيّتا.. كان بحوزتهما مبلغ كبير من العملة الصعبة.. دار بينهم حديث غامض، أخذ جزءاً غير قليل من المبلغ؛ وعادا سالمين ليركبا السيارة.

وأشار أحدهم إلى الشاب صاحب (الهيدفون): هويتك.

الشاب بشيء من البسالة: هويتي مسلم عراقي. فحبذا تعرفني بهويتك.!

المسلح: لا بأس. اقرأ لي سورة القدر، كمْ ركعة صلاة العشاء.؟ كمْ سورة في القرآن.؟ اذكر أسماء الخلفاء الراشدين.

كلها أسئلة تبدو كشماعة قتل، أن عرف الإجابة أو لم يعرف، هل ستودي به إلى حتف مخروم بطلقة أمير طائش؛ يفرض الدين بالرصاص.!

كبر الشاب في نظري، وهو معرض عن الإجابة، وغير آبَه بالأمير، وجند الخلافة كما يزعمون.. طلبوا منه الترجل من السيارة؛ فترجل بخطى واثقة إلى حيث..

نظر بوجهي شزرا، وأنا في الرمق الأخير من نهايتي، قال: لا أطلب هويتك فأنا أعرف من تكون، لكنني سأسالك بضعة أسئلة، ما اسمك يا عبد الله.؟

المضحك المبكي رغم تصاعد الخطر، واقتراب ساعة النحر، إن تنسى اسمك، وتلعن رسمك، وتكفر بكل شيء، كل شيء على الإطلاق؛ وأنا أعني ما أقول.

استقبحَ صمتي الناطق، استطال غيابي الحاضر، جابهني بماسورة المسدس، وهو يطرق على رأسي طرقا خفيفا، ينعش تلبكي وتبلدي، قائلاً: ها... أين وصلنا.؟

قلت وكأن الذاكرة واتتني بسرعة: حنون عبد ربيع.

قال بسلطة الحاكم الجائر: لعنة الله عليك، اسم قبيح، ورسم دميم.

لم يسكت أبي وهو يراني أتمرغ بذبح بطيء، قال: مهلاً يا إخوة الإيمان، أليس هكذا يسمونكم.! أليس الدين رحمة.؟

فقال بسلطان الظالم: أبوه.؟!

– بلى.

- اسمك عبد ربيع.

بشجاعة لم أعهدها في أبي، قال: اسمي عبد وأبي ربيع.

تأمل أبي وجه مُدَّعِي الإيمان والتدين القبيح المنظر، وهو بكامل قيافته التقليدية يمارس بروتوكولات الفاتح المنتصر بالله، وهو يلوّح برايته السوداء كسَّوَاد قلبه القاتل البغي، ما زالت ثمة نفوس وعقول ضلالية تعتقد بكفر الكل ما عداها، أولئك العصابات التي تطلع من أمهات كتب التكفير كرؤوس الشياطين لتحكم باسم آلهة المال، وتدعم قوانين أزمنة الاستلاب والاسترقاق.. وهو يردد بهمس مسموع: أنا أعتقدُ، بل وأجزمُ أنَّ تطور المتدين الجاهل فلتة وقى اللهُ الكون شرّه.!

مثل هؤلاء الهمج الذين يطعمون الخروف قطعة سكر قبل الذبح، متمنين للخروف دنيا أحلى.! أية ملة شر وضلال تسلطت على رقاب الناس؟!

نقر بماسورة مسدسه على رأسي عدة مرات، حيث كنت أنا الأقرب مكاناً إليه من والدي الذي يتوسط المقعد الخلفي، وهو يصيح بي: أكمل.

- ماذا.؟

أرجأ السؤال إلى سؤال آخر أشد حساسية وحرجاً: هل تجيد الغناء.؟

لا أعرف كيف يفكر ابن الكلب هذا. ولِمَ لا يعجل في قتلي، فأني أشك أن بقائي حياً قد يورثني كذبة الحياة.

أبي لم يمهلني طويلا اصطلي بنار الخوف حدّ الحرق، فساهم قائلا: إنَّ الدين عند الله السلام. وكان من المدحضين.

قال الأمير: الدين عند الله الإسلام؛ يا خرف.

ولأني أحببت أن أسجل موقفا تخلده نفسي، إن لم يكن يذكر في صحيفة ما، أقلها يذكر في انطباع هذا الأمير السادي، قلت: أنتم تقولون الإسلام، ونحن نقول السلام؛ فلكم دينكم ولي دين.

ولم يصمت أبي، وبدا منددا: حاشا لله من أن يضع السيف بيدك، لتقتص له من عباده. وأردف بصوت متهدج كانت آخر انفاسه: إن الله لا يوكل مجنوناً بقتل خلقه." ما جئتم به السِحرُ إنَّ اللهَ سيبطلهُ إنَّ اللهَ لا يُصلِح عملَ المفسدين".

أغاظهم الى درجة أن سدد فوهة مسدسه في وسط جبيني، وأذعنت لهاتف الموت.. وأنا أرى الرصاصة تنزلق من المزلج، لتدور في نفق حَلَزوني. وكان ثمة سؤال عالق في ذهني، أهناك قوة ما رادعة، بإمكانها أن توقف هذا الزمن وتطوي صفحة الكابوس، وكأن شيئاً لم يكن. فلم أسمع سوى صراخ أبي: إنه ابني.

وكانت الطلقة قد هشمت رأسه. بعد أن حَرَفَ اتجاه الماسورة قليلاً. وبقيت أنا مَلْعَنةٌ كلما صاح صائح يا أبَّ..

*

ضحايا الجغرافيا

تاريخ اليوم...

في كل جنوب هناك مشكلة وبؤرة صراع، إن لم تكن مشكلة عرق ودم، فهي مشكلة أرض وماء.. هناك من ألغم الجغرافيا وشحذ الهمم؛ وألهم الصراع بالمبادئ الفارغة والقيم.

لم يكن الصراع السني الشيعي صراعاً عقائدياً كما يروّج له في الدكاكين الإعلامية الممولة داخلياً وخارجياً، والتي باتت لكثرتها أشبه بـ(بسطات) الأرصفة والأسواق الشعبية، تباع بها الفتاوى التحريضية بـ(التفاليس)، لديمومة سلطة (الخليفة) الممتدة لسلطة السماء كما ينظّر لها.!

أنهم وإن اختلفوا بالخلافة، اتفقوا في المحبة؛ وهذا أهدى النجدين. لكن غرس بذرة التشكيك والتعصب التي كانت تسقى على الدوام بدم المجاذيب والمستضعفين، وتظلل بعباءات الفتن السوداء، كان لها رأي آخر.

فالصراع الطائفي وإن كان خافتاً في البلاد، أو منزوياً تحت لافتة الجمهوريات التحررية، لكن التمييز الطائفي والتمايز المناطقي كان معمولاً به في أروقة الدولة التحتانية، ومعتمدا بشكل كبير بأجهزتها الداخلية وما تحت السرة.

هكذا كان خليف المجنون يشرح ل- (هند) البنت الكبرى لحنون مادة الجغرافيا للصف الخامس ابتدائي، وكانت تضحك عندما يتجاوز خليف المنهج المكتوب؛ ليشطح بعيدا. ويضيف: أن أرث اجدادنا كذبة كبيرة ومريرة، لا تربطنا به وبهم سوى طيوف رمادية من حلم طويل، لذا نحن لا نرث الارض من اجدادنا، بل نستعيرها من أولادنا – كما يقال.

هند مستفهمة، وهي تشمر بيدها الصغيرة: من قال.؟

- لا أدري. أجاب، واستطرد: ربما أنا.!

أعادت ضحكتها الجميلة ذات البحة الناعمة، وهي تفصح عن أسنان مجسّرة بالقصدير، وبوجه يشرق بالسعادة: انت تحكي كثيرا، وتأكل كثيرا. جدتي تقول: المجنون لا يسمن. وامي تقول: يموت المجنون من القمل.

يمعن النظر بها بفيض من الرحمة والأُنس: وأنت ماذا تقولين.؟

بهدوئها المعتاد وضحكتها الناعمة، قالت: انا لا أدري، او كما تقول انت دائماً، لا أحب أن أعرف.!

**

هل تحب أن تعرف من تكون.؟ هكذا كان حنون جاهزاً وحاضراً للجواب عما يدور في خلد خليف المجنون، لو كان يفكر؛ لكنه نأى بنفسه بعيداً عن الأسئلة، وتمسك بقول سارتر: "أفكر ان لا أفكر".. لذا لم يسأل يوما ولا يفكر في الأمر، أكان من العرب العاربة، أو من العرب المستعربة. فكل الإجابات لا تخدمه بشيء، وتنتفي قيمة السؤال؛ إذا كانت أجوبة الدنيا كلها لا تعيده لرشده والصواب، فما جدوى السؤال من الأساس.

ظل حنون يتطوّح بين دافعين: الأول أنه يرى خليف كأخ له (عوضه الله به عن فقد أخيه خماس) وعليه أن يقدّم كل ما يمكن أن ما يقدمه أخ لأخيه. وهو يجزم بشكل قطعي وثابت اليقين، بأن خليف أكثر من عاقل، وأنه أصيب بصدمة ما، أو تعرض لنوبة كآبة وهستيرية لسبب يجهله.

أما الدافع الثاني والذي يحاول أن يخفيه قدر الإمكان، إلحاح زوجته على طرده وإخلاء المكان، الذي كان بالأصل دكاناً، تم تعديله على شكل حجرة مع قاطع حمامات، ما يساعد زوجها على إعادة بنائه من جديد والاستفادة من إيجاره.. وكان يداخل حنون إحساسا بالرضا من سلامة نيتها، ومجلبة لمنفعة أسرته التي بدت تكبر، وتكثر مطالبها... إلا أن الدافع الأول الإنساني والأخوي الصرف يمنعه من اتخاذ أي قرار. كما أن أمه تقف كحائط الصد والعارض الكبير وحجر الأساس في ملكها الكامل للبيت، وأنها لم ولن تفرط بخليف الذي تعده ابنها البكر – بديل

خماس، الذي أختطفه الموت من بين عديد الأرواح التي أخذت على حين غرة – لم تكن الأم لتلتفت لأبنها خماس ولا يخطر لها على بال ذكرى الا في حالات التذرع. بينما كان خليف البديل المؤنس الرحيم والذي طالما نعتته بهدية الخضر (عليه السلام) وهي دائماً ما تذكر الآية الكريمة:" فأردنا أن يبدُلهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأقربَ رُحما".. حتى أن الناس البعيدة والجيران بدأت تعتقد في تقادم الزمن أنه أبنها، لولا لون البشرة.. وإن كان الكثير من الناس ممن يتغاضى عن توافه الأمور. فما عاد الشكل واللون والجنس يشكل فارقا ملحوظا بين بني البشر، إلا من حدّ النظر وأمعن في التنقيب.

**

المجنون وحده من يصدق نبوءة مجنون.!

كان حنون منشغلا في دكان بيع الفلافل، الدكان المنشق من واجهة البيت. كانا دكانين بقي الأول كمطعم لبيع الفلافل والسمبوسة والمشكّل. وتحول الثاني إلى حجرة صغيرة، ذات حمام ومراحيض ومغسلة كمشتمل ومأوى لخليف ذات باب خارجي.

يعمل حنون صباحاً في بيع الفلافل إلى العاشرة صباحا وأحيانا الى الغداء ثم يعود العمل عصرا حتى التاسعة او العاشرة مساءً حسب الطلب، يعينه بذلك عامل مساعد اسمه (باقر) شابٌ يتيمُ الأب، سوي الخلق. عمل معه منذ كان صبيا، وما يزال يعمل بنفس الكدِّ والجهد، وبدا ما

بينهما اقوى بكثير من رابطة الدم؛ كما عني لحنون كالأخ الأصغر، مثلما كان خليف بمثابة الاخ الاكبر.

تبنى حنون وأمه تزويجه، والتكفل بمصاريفه كافة، فهو يحظى من هذه العائلة حظوة الابن المدلل، وكان على درجة من الأدب ما يشفع له في كل محفل؛ ما يخجل المقابل.. فضلا عن كتمانه للسر، واحترامه للصغير والكبير، مع ما به من سخاء نفس؛ فلا يطلب لعمل ما في بيت حنون الا ولبّا برحابة صدر.

وكان حنون يبادله ذلك، فما من مشكلة إلا وكان حنون أول المبادرين في حلها، والمشاركين بكل ما يلزم مادياً ومعنوياً.

كان عمرُ الدكان طويلاً على حياة أبيه، ولطالما خضع الى ترميم وتحسين، وزيَّن بالموزاييك الابيض والبيج ذات النقوش البهية، مع عارضة زجاجية مسنّدة بالألمنيوم الذهبي، وثمة عارضة اخرى للمشروبات الغازية، وشيدت مصطبة جانبية على طول المحل بالأسمنت الأبيض مغلفة بالسيراميك مع سقوف ثانوية مزدانة بإنارة موزعة بشكل هندسي جميل.. على الرغم من أن الدكان بدا متواضعا قياسا ببقية المحال المتواجدة في الشارع الرئيس، او المدن الاخرى، كان مدخول الدكان جيدا يغطي نفقاته بفائض بسيط. ما كانت الأم لتأخذ من دخله شيئاً، خاصة بعد ان حصلت على حقوق زوجها كشهيد جرائم الإرهاب.. وهي كثيراً ما تنفق على طفلي حنون: (هند) تسع سنين، و(إدريس) ست سنين؛ غير

ما تهبه لزوجة ابنها (هنية) رغم حالة البرودة المعتادة بين الحماة والكنة.. يبقى الجزء الأكبر ما يذهب الى ابنتها (دانة) المتزوجة من (عودة) ابن عمتها، الساكنين في منطقة بعيدة، والتي كانت نادرا ما تأتي لزيارة أمها، لخلاف زوجها الدائم مع حماته أم حنون، والذي كان يتوقع بشكل قاطع أن لزوجته حصة من الإرث في بيت أبيها، حتى عندما اخبرته بان البيت باسم امها، كان يكذب ذلك. ويقول: إنه أمرٌ دبّر بليل.

ما اضطر حنون لإظهار نسخة مصورة من سند البيت إليه، لكن قناعة (عودة) كانت راسخة بقوله: إنه من اعمال السحر.

وذات يوم نشبت مشادة كلامية كبيرة بين عودة وحماته، وهو ينعتها بالساحرة ويكنيها بـ (ام السحورة) والمشعوذة.

فجابهه خليف المجنون، ووقف بوجهه وبدا يدفعه دفعاً شديداً للخارج، حتى تراجع بخطوات مضطربة، كاد يسقط مرة وأخرى، لولا أن أسند نفسه للجدار، وتشبث بإفريز السلم.. وهي المرة الاولى التي يتدخل بها خليف لكونه مسالما بالمرة. فاضطرت دانة للصياح به: انه زوجي.

توقف خليف خجلاً نادماً. بينما استغلّ (عودة) الموقف لصالحه، فلطم خليف لطمةً قوية، وهو يصرخ به: أي مجنون يصدق أنك مجنون، انت واحد من عفاريتها؛ العقرب اللعينة.

**

الاعتراض حق مكفول...

دفع خليف الباب بقوة، ودلف لبيت العائلة، وهو يصوت ويصيح: فلافل، سمبوسك، بيض وطماطم، طماطم وبيض؛ لا يوجد في هذا البيت غير هذه الأطعمة.. بدأت أكره العشاء، لا أنا أحب العشاء، وأحب خبز التنور، والشاي و(القيمر) والعسل.

ضحكت أم حنون قائلة: لكن هذه وجبة إفطار.

وشمر خليف بيديه: قلت أحب. توقف وهو ينظر بوجه هند الصغيرة الباسمة، وأكمل: وأحب هندا.

ضحكت هند ضحكة لذيذة، بينما استاء إدريس الأخ الأصغر، وبدا عابس الوجه. فاستطرد خليف: وأحب إدريس الجميل (الكتكوت).

وأخذ بيديه وحمله على كتفه، فضحك حتى بانت نواجذه فرحاً.

لكن (هنية) بقلبها الجاف ووجهها المقطب أرادت بصورة وأخرى تعكير صفو الجو، قالت: ليس من العادة أن تقتحم علينا البيت.. استحى خليف كثيراً، فهي نوبة قلمّا تحدث، دائماً ما يطرق الباب ويستأذن، وإن كان الغالب أنه ما أن يطرق الباب يدخل، فهو يظن في قرارة نفسه أن البيت بيته؛ وهو مرحب به.

لولا أن (هنية) لا تستهويه، بيد أنه يبادلها نفس الإحساس، لكنه لا يجانب الاحترام لهذه الأسرة التي ملكته، وملّكته كل ما هو فيه من حياة.

دافعت أم حنون عنه، وبررت فعله بقولها: لا عليك، الاعتراض حق مكفول.. قل ما تريد وما تشتهي.

كأن خليف غير قادر على تخطي نوبة الخجل المصحوب بشيء من الانكسار.. حاول الخروج، لكن هندا اعترضت طريقه: اجلس.

فجلس على كرسي بلاستيكي ضعيف القوام، بدا يتأرجح به وكاد أن يسقط، لولا أن تدارك نفسه، وأسند كتفه على الثلاجة. نهض إدريس من فوره فاسنده بيدين ناعمتين، واستوى قاعدا على الأرض.

فضحكت هنية ساخرة.. بين أن الموقف كان مزلزلاً للأطفال والجدة.. ضحك هو الآخر كأنه يناظرها ذات التهكم والسخرية، وهو يقول في نفسه: (ما أجمل هذا البيت، لولا أن به أفعى مجلجلة).

**

ها.! الاستغراب العاجز...

ابتاع حنون جهازاً لوحياً (الآيباد) لابنته هند، لكنَّ إدريس ما أنفك يعابث أخته، فلم يعتقها من المتاعب والإزعاج، وهو يتابعها خطوة بخطوة؛ ويطالب بالمثل. العدالة التي يعرفها الطفل أن تعطيه كل ما يطلب ولا يعفى بغيرها.

يتعذر الأب ببالغ الضرر على الطفل عقلياً وبصرياً، لكن هل بإمكانك أن تُفهِم الطفل ذلك، متى ما فهم المجنون فهم.! هكذا أسرف حنون بالحديث أمام خليف.

فأجاب خليف: أنا فهمت.

– لا أعنيك البتة.

– إذاً ابتاع له جهازاً آخر، وليكن صغيراً ومناسباً لسنِّه.

– هل تتوقع شراء الجهاز سيكون نهاية الأمر، فهو يحتاج إلى رصيد مسبوق الدفع، وإنترنت و.. و.. بالتالي لم يتبقى سوى شهرين على دوام المدارس، وهو في الصف الأول، فكيف سيتعلم إذا كان همه الأكبر مشاهدة اليوتيوب، والتمترس بلعبة القتل.

ببساطة ساذج وعفوية طفل، رد خليف: سيتعلم أفضل مما يعلمه المعلم.

– وما أدراك.؟

سؤال مستفز: ها.! أحس بأنه سؤال استفزازي فأجاب: بـ (ها) الاستغراب العاجز عن مجاراة الحديث.

قال حنون: قلت ها وسكت، تحاول إبعاد الشبهة عن هند.

لكنه لم يجب بأكثر من (ها). مرة أخرى؛ وصمت.

لا هند ولا أمريكا..

كانت (هنية) جالسة أمام طاولة الزينة، تتزين لليلة عرس جديدة، مرتدية قميص النوم الأحمر الصارخ، والفاضح عن نهدين كبيرين متكورين في ساحة الصدر السمراء المشدودة القوام، وقد طليت شفتيها بأحمر الشفاه الغامق الظلمة الذي ضاع بعمق شفتيها الداكنتين، وتعطرت بخلطة عطر محلية الصنع، ذوت برائحة جسدها الصيفي السمج.

عند أول دخوله للغرفة عاب عليها رائحتها المطبخية، وهي ترمي ملابس الطبخ داخل الغرفة، فشاطرته نفس الإحساس.. فهو لم يختلف كثيراً عنها فرائحته المطبخية من دهون قلي وبهارات ومقبلات قد تبدو أكثر لذوعة وحرقة من الفلفل الحار على مقياس سكوفيل.

ومن دون مقدمات ارتشف نهدها ببرطمتيه الفواحتين بعطر النارجيلة، وبدا يقرقر في نهدها كما لو أنه يمتص الدخان. بدأت تلعب بشعره المفلفل وكأنها تحاول حل لغز المتاهة.. لم ينقطع من اللثم والتقبيل، وهو جاث على ركبة واحدة وينتقل من كرة لأخرى.. تحاول جاهدة أن تنهض به إلى السرير، لكنه أقسم إلا أن ينهي نارجيلته الوهمية المجسدة على هيئة امرأة بكامل زينتها وبعطر التفاح الفواح، فأخذ يتنقل من مكان إلى مكان، وان كانت كل الأمكنة ذات الطعم؛ إلا أن اللذة تختلف من مكان لآخر. وكلما يزداد وَلَغَا يزدد شهية، وتحوّل من المص واللثم، إلى العض والقضم، فصاحت به زوجته: هند.!

أجابها بكسل لم يشأ أن يفك شفتيه من لحم الخاصرة: لا هند، ولا أمريكا.

فدفعته عنها، وأسرعت إلى ابنتها التي دخلت عليهما الغرفة عنوة، تبدو كأنها حالمة، وبلا وعي.. فوثب من مكانه وأمسك ابنته: ما بك.؟

وهي تحملق بأمها التي بدت شبه عارية، والأب الذي بدا كالرضيع الجائر، الذي يلتهم كل ما طاب له من جسد الزوجة.

عادت الصغيرة إدراجها لحجرة جدتها، حيث تنام؛ وعيناها تقدحُ بالصور.

**

احتدم الجدال بين الأبوين، أيهما يكفل هند من الكلام، فهي المرة الأولى التي تشاهد مثل هكذا موقفا، بالرغم من تحفظ الأم بشكل خاص، ومداراة الأب بشكل عام. تتهم (هنية) زوجها بأنه السبب بترك الباب مفتوحا دون القفل، وحنون يبرأ ساحته، بأن هي من عليها التأكد من إغلاق الباب؛ فالرجل دائما ما يفقد في مثل هذه المواقف.. وبدا الباب حديث الساعة، ارتدت ملابسها وهي منزعجة؛ بينما كان حنون يهم بها للفراش.

وبقدرة المرأة القادرة على الإماتة والإحياء، قلبت الطاولة عندما ولجت به في متاهة أخرى: ابنتك لم تعد طفلة.

– وما الجديد في الأمر، اعرف أنها كبرت، واعرف أنها بلغت العاشرة.

– بل إحدى عشر ربيعاً.

– وما الضير في ذلك، كلنا نكبر، تقصدين أنها أصبحت بالغة.؟

– لا.. لا أعني ذلك، ولكن...

قاطعها بتذمر: إلام ترمين.؟

– أكره علاقتها بالمجنون.

– ماذا.؟! بنرفزة واستياء، استطرد: أنت مجنونة، حقاً مجنونة.

– لا عليك.. إنما البنت تُعيّر بأمها، تُفسّق بأمها، خطأ البنت لا يغتفر.

– بالتأكيد أنت مجنونة، أتعرفين كم يبلغ عمر خليف.؟ أسمعت يوماً أنه...

لم اسمع. قاطعته: ولا أريد أن اسمع شيئاً عنه، منذ متى كان الخطأ بالسماع، أريده بعيداً عن ابنتي من تاريخ اليوم.. اكتبه عندك في دفتر الديون، اصنعه تحويطة أو حرزاً مثل أحراز أمك، أريدك كلما تنظر إلى ابنتك، تحسسها بوجودك، أنت أبوها الوحيد والمسؤول عنها، وكل ما يصيبها أو تتعرض له فأنت السبب.

إن كانت أمك قد غفرت لك قتل ابيك. فأنا احرق الدنيا عليك؛ إذا مست الرياح طرفاً لأبنتي.

دخل الرعب في نفس حنون، من كل مسامات الهواء فيه. حتى باتت ليلته أشد ظلمة من وجه زوجته البومة.

*

جبهات الحياة

"كن شاكرا لأنك نكرة لأنك لا أحد..

هنري ميلر"

أول ظهور..

بدايات 1999

أؤمن أن الحياة نفسها أمل قالها وفارق...

كان حازم المعاق الذي فَقد مشط أصابع قدمه اليمنى بانفجار لغم أرضي، من مخلفات الحرب العراقية الإيرانية، والذي اضطره حصار عام 1990 أبان حرب الخليج الثانية كما اضطر الكثير للبحث في مخلفات الجيش السابق، ما دعاه للعمل في بيع وشراء المقذوفات الحربية ومخلفات الثكنات العسكرية من حديد وصفائح مقوى، وكل ما يمكن اقتناؤه من (سكراب) الآليات الخردة، المتروكة هنا وهناك على طول جبهات القتال، وخاصة في مدينة البصرة فهي محاطة من الجانب الشرقي والشمالي بجبهة إيران، ومن الجانب الغربي والجنوبي بجبهة الخليج. وعلى طول

الجبهتين أنقاض بشر، ومشاهد حطام وطن، وذكريات قفر، فكل حبة رمل وحفنة طين تذكرك بجثة شاب مهشمة، كأن الأجداد نذروا احفادهم قرابين ولاء للطغاة.

كان حازم كلما فكر بقدمه اليمنى المبتورة يضحك وهو يقول ساخراً: زائدة على الملاك. فهي لم تثن عزيمته في مواصلة المشوار، والبحث عن لقمة حلال، لتذهب إلى المسكر مرة وإلى الميسر مرات.

تقول: حلال.!! هكذا كان يعابثه خليف ساخراً.

وتطور الحال أكثر فبدا يبيع الخمور في بيته، بعلم الدولة وتحت غطاء رجال الأمن المستفيدين ماديا ومعلوماتيا من هذه الشراكة، بمعرفة كل صغيرة وكبيرة تدور في هذا الحي... واشترى مع حماره القديم حماراً آخر يشبهه. هكذا كان يسخر من نفسه.!

وعربة أخرى كان يؤجرها لأحد أصحاب الصنعة، لبيع الغاز ظاهراً أو على الأغلب، والقيام سراً بنقل المشروبات الروحية من المصدر إلى بيته.

لم يرزق سوى بنت واحدة وافتها المنية صغيرة. خاصةً أن زوجته الأولى طلبت الطلاق بسبب عدم الخلفة.. إلا أنّ (صبيحة) زوجته الثانية وهي أم (زينة) المتوفاة، كانت تشاطره الحياة بحلوها ومرها، فهي يتيمة

الأم تعيش في كنف زوجة الأب ولقت من شظف العيش وقساوة الحياة ما لقت، وهي دائما ما تقول ما طلت من اسمي غير ليل دامس.

مضت ستة أعوام على وفاة ابنته الوحيدة، وهو لم يعبأ بالخلفة ولا يفكر بمراجعة الطبيب.. غير أن زوجته تكلمت كثيراً بهذا الموضوع، وألحت بالطلب، لكن في كل مرة تواجه الإجابة بشريط من سباب طائش، إذا ما تطور إلى لكمات مبرحة.! في جسد اشبه ما يكون بكيس ملاكمة.

لا أحد بإمكانه أن يعارض ما يقرره حازم وما يسنه، أكثر الجيران تخشاه لصلته الوثيقة بالأمن؛ ومن يجرؤ الاعتراض.؟!

ما عدا أبا حنون وحده كان يقف بوجهه ويعارضه بشدة، وأحياناً كثيرة ما يوبّخه، بخصوص زوجته وتعامله الفج معها، ويقوي جانب صبيحة عليه، ولطالما أواها في بيته لإطفاء نار الفتنة وتطييب النفوس، فيعيدها إلى زوجها وهي مطمئنة؛ أن الأمور تحسنت وصُلح الحال.

**

أنا أنحني لهذه الجيرة احتراماً وتقديراً. هكذا كان يعبر حازم عن مشاعره المضطربة.

على الرغم من سوء خلقه وقبح خلقته، كان يحب أبا حنون وعائلته حباً جماً، وكان بالنسبة له كالمعلم والصديق الأكبر سناً.. ما دعا لامتداد علاقته مع حنون على غرار علاقته بأبيه، غير أنه دائما ما يخاف أم حنون المرأة العرّافة أو السّحارة حسب ما تقتضيه المصلحة.. وقد سبق

أن تقدم لخطبة ابنتها (دانة) لكن الأم اعتذرت لصغر سنها وقتها، والتمايز العرقي، ونصحته بصبيحة البنت اليتيمة، وإن لم تكن بذاك الجمال، إلا أنها تكفي أن تكون بيضاء؛ فليس من الجيد أن يرتبط القبيح بسوداء. هكذا مازحته.

كان بيته قديماً موروثاً عن أبيه، ذات باحة كبيرة بحجرتين مصطّفتين على جانب واحد، مع حمّام ومرحاض صغيري المساحة، استخدم حجرة للمنام وأخرى للضيوف، وأحاط السياج الخارجي بالصفيح المقوّى من جهتي الشارع، حيث كان بيته ركني الموقع، ذات باب حديدي كبير يسمح بدخول العربة. وكانت الجهة الثالثة تحتمي بجدار مشترك، لبيت أبي حنون.

وبنى على جهة حجرة النوم، مطبخاً صغيراً من ألواح الفورميكا، مغطى بالصفيح المقوى، اقتصر على طباخ صغير، وصوان قديم يجمع به ما يملك من أوان طبخ كقدور واطباق من(الفافون) وبعض ملاعق الاستيل، وأقداح بيضاء ذات نقوش باهتة، وترمس شاي مع أكواب شاي صغيرة ملساء محزمة بخيط ذهبي، مختلفة الأحجام والأشكال ذات قاعدة متباينة السمك والاستواء.

وثمة مسقّفة كانت في الزاوية الأمامية لجهة الباب مفتوحة الجانبين، مثبتة بساق شجرة نخرتها الأرضة، مسقوفة ببعض الأغصان، مسنّدة

على عمودين متقاطعين، مغطاة بقماش الجوت ومشمع قديم، قد أكلته الشمس فجعلته متهافتا، بذيول مهترئة تلوّح مرفرفة مع كل نسيم.

وذات سكرة.. وثب حازم قافزاً يقبل الحمار، ما دفع الحمار إلى حالة حميمية بطريقته الغرائزية المعتادة. فاستاء حازم وامتعض وأخذ يزبد ويرعد ويضرب الحمار بخرطوم ماء تالف يستخدم كالسوط أعد للتأديب والترويض، ويهدد ويتوعد: سأقتل الحمار؛ هذا اللوطي.!

وحاولت زوجته صبيحة إسكاته وثنيه عن إيذاء الحمار.

فالتفت إليها قائلا: أنت على علاقة به.؟!

سكتت وكان في جوفها يتغرغر الكلام كالبلغم، لتقول بصمتها المكبوت: (المجنونة وحدها من تستبدل حماراً بآخر).

**

في ليلة شتوية قارسة البرد، كسرت الأمطار زهو القمر، فبدا ظاهراً مرة وغائباً مرات مع عصف طارق يقتحم الاتجاهات.. غسلت الشوارع المتلبدة وراء صقيع يلتحف الأجساد دون الأماكن.. بدت بيوتات الحي مظلمة إلا من قناديل خافتة، وفوانيس مرتعشة الذبالة.

لم تصمد السقوف كثيراً، بعدما أخذت شآبيب المطر توجع بالضرب، وتهتك شموخ الميازيب.. الخرير يتدفق من كل مكان، ابتلت الأسرة

والسجاجيد، وباتت الأجساد تنوء ببقعة نجاة من رحمة هابطة بسرعة وغضب.

ثمة زعيق في الخارج، صوات يتعالى وصراخ يستغيث.. توقظ صبيحة زوجها المخدر النائم بأحضان سكر، أيقظته مرة ومرتين، الصراخ يعلو، وشخير حازم يصعد وينزل في سلم موسيقي.

تلفعت بمعطف عسكري مشمع، وخرجت من حجرتها، إلا أن صعق المطر أبى إلا إرجاعها إلى مخدعها، وعادت الكرة بإيقاظ زوجها، فبالكاد تنبه، صوت الزعيق كان هادراً، على الرغم من أن صعق المطر لم ينفك، وهو يشغل الحيز الأكبر في المسامع والأذهان.

أخذ المعطف ذاته وغطى رأسه بالبرنس، وخرج على الفور، بيده مصباح يدوي، فتح درفة الباب الحديدي بقوة، بينما كان الريح يذود في غلقه، وإذا به برجل يستظل بالعربة، وشآبيب المطر ترشقه كالنبل؛ والريح يعصف بالخلاء.

ومن دون سؤال أو كلام سحبه للداخل فوراً، والرجل يصرخ بهستيرية.

صاح به حازم: هس ... هس، أنت بأمان.

وانتقل حازم للحجرة الثانية وجلب بعض الملابس والفرش، وأوقد له مدفأة نفطية، بعد أن غيّر ملابسه، والتحف بلحاف سمل.

هدأ المطر، لكن السماء ما زالت تزمجر بالبرق، والغيوم تخاتل القمر.

**

هل تعرفه.؟ قالت صبيحة بخوف واضطراب.

لا. اختصر حازم كل الأسئلة التي في جعبة زوجته.. التي بدت مرتابة ومرتبكة أكثر، خاصة وأن الشخص لم يسبق أن رأته في الحي، فرجعت تؤكد: لكن كيف ندخل غريبا في بيتنا.؟!

التحف حازم لحافه الكبير وغطى رأسه، وهو يقول: كلنا غرباء.!

لصقت رأسها على وسادتها المبللة بجوار حائط ينفث نتفات جص مقشّع.. رفعت الدثار عن وجه زوجها قائلة: لم تسأله عن اسمه حتى.؟

أجابها وهو يحكم الدثار على وجهه: سمّيه ما شئت مطراً صاعقاً، كابوساً؛ فكل الأسماء لا تمنع من أن يسرقنا إذا شاء، أو يقتلنا ويهرب.

بات الخوف يقضُّ مضجعها، وسبحت تتأمل كلمة زوجها (كلُّنا غرباء).

غرباء الدنيا، غرباء الوطن، غرباء البيت، غرباء الفراش، لو لم نكن غرباء بمعنى الكلمة لما عاملنا بعضنا الآخر بهذه القسوة، لو لم نكن غرباء لكانت قلوبنا اِرْق وألين، لو لم نكن غرباء لما باعني أبي بيعة

كلب لكلب؛ بل لخنزير.. كثيرا ما استعطف الحمار فيصغي لي ويجيبني، إلا هذا الزوج الذي لا أعرف من أي طين عُجن، ومن أي عود نبت.

سرقها النعاس وهي حبلى بأوجاع اهمال الزوج وبروده الدائم وتناسيها، وكانت مطارق الأسئلة تنقر جمجمتها بحلمٍ يتابع حلماً، وشريطاً طويلاً من كوابيس.

حتى ولج نور الصباح حجرتها، استفاقت والألم يعاضد الألم، وشهوة النوم تحرّض الكسل، وتنشّط الخمول، وغالبت الكسل بقوة وجرت نفسها من تحت ملحفها الثخين؛ بينما كان زوجها كالمضروب بالقاضية؛ تعلو نغمة شخيره ألوان التفتفة.

أطلت على الحجرة الثانية، كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، والمدفأة مطفأة، والفراش رُتب على أحسن ما يكون ترتيباً عسكرياً، ولا أثر للغريب.. استطلعت الحمامات بحذر، كان خالياً من كل نفس.. أشاحت ببصرها بعيدا فإذا بها تلمح باب البيت مفتوح الرتاج، إحدى درفتيه لم ترد بأحكام، عجلت بخطاها وهي تقرقع في بقعة راكدة من بقايا المطر، وحشرجة الحصى تئط تحت نعلها، فتحت الباب قليلاً، وإذا بها تراه متكوراً تحت العربة؛ يحدق بها من بين ذراعيه، مؤثراً الصمت والبرد.

**

أيقظت صبيحة زوجها، قام وهو متململ، يتفحص وجهها الذي ما زالت ندوب السهر واضحة الأثر عليه، مثل ندوب وجهه الذي دائما ما

يسميها ندوب الحروب، وأضاف متفكهاً امة بلا ندوب أمة بلا ثقافة. فصاح بزوجته: ما وراءك يا ...؟!

من دون مقدمات تدخل بالإثارة: الغريب رحل.!

باستغراب واضح: ماذا.؟

الغريب.! سكتت وهي تحملق بوجه زوجها، وهو يتلمظ بشفتيه اليابستين، واستطردت: أنسيت الرجل الذي استضفته البارحة.

هزَّ حازم يدهُ مستخفاً بها: أنت مجنونة، حالمة، لا غريب الا عفاريت ام خماس...

بشيءٍ من الضيق والتبّرم: ماذا تقول.؟ البارحة أويت غريباً في بيتنا.

قاطعها بنبرته الحادة: كفّي عني، أريدُ الإفطار جاهزاً في غضون دقيقتين.

انسحبت، وما كادت تصدّق أنَّ زوجها نسى ما حدث البارحة، وحمدت الله أنَّ الغريب رحل من تلقاء نفسه، أو على الأقل خرج من البيت. لتسبب بمشكلة كبيرة، وأثار الشك الذي ما عاد يخبو، إلا واشتعل في كل موقف يحدث واسم يذكر.

خرج حازم من الحمّامات وإذا بالحمار ينهق، فسار باتجاهه وضربه بلا سابق إنذار بخرطوم الماء على وجهه، وهو يكلمه: (أما تدري بأن صوتك من أنكر الأصوات، إلا إذا كنت تظن نفسك بلبلاً مفجوعاً).

لفت انتباهه أنَّ باب الحوش مفتوحٌ، فانطلق سريعاً إليه، مدَّ بصره إلى الخارج وإذا برجل مكور بمعطف عسكري تحت العربة... أمعن النظر فيه طويلاً، فخرج مسرعاً وأمسك بتلابيب المعطف، وسحب الرجل من تحت العربة، وهو يصيح: معطفي، هذا اللص سرق معطفي.

شمّر الغريب بيديه للنفاذ من قبضته، ولم ينبس بحرف واحد فتدخل حنون، وسحب حازم بقوة وأبعده عنه، وهو يهمس بأذنه: أظنه مجنوناً.

لم يلتفت حازم لهذه الكلمة، ولم يستلطف هذا التبرير، ويظنه سارقاً بل ويجزم.

وهل ثمة من يقدر على سرقة لص. هكذا كان حازم يكابر ويفتخر.

فاستطلع الوجوه وإذا به يشاهد زوجته صبيحة بين المجتمعين فسحبها من شعرها: مَن هذا.؟

لم يمهلها لتجيب، وإذا به يلكمها على وجهها بقبضته لكمةً كادت تموت بها.

فدفعه حنون بقوة، وما أن رأى (باقر) موقف حازم وهو يطوّح بيديه ويتجاوز بالسب، تناول السكين بسرعة وبدا يلوّح بها تخويفاً، فالتفت إليه حنون وصرخ به: اذهب. فتقهقر.

ما دعا الغريب لينزع المعطف ويرميه بوجه حازم، وظلّ شبه عار، إلا من ملابسه الداخلية التي ما زالت مبللة ما تكشف عن أعضائه الداخلية.

فأدرك حازم أن هذا الغريب ما هو إلا مجنون، فعاد له المعطف. لكنه رفض ذلك، وبرك متقرفصاً يواري سوأته.

بينما حدجته صبيحة بنظرة كلها خبث واشتهاء؛ مستثارة لمكامن الأنثى المقتولة فيها.

**

حمله حنون إلى الدكان، وقد لفه بمشمع مطري كان يرتديه، فدلف إلى البيت وجاء له ببنطال وقميص وملابس داخلية لأبيه، لكونها ذات القياس تقريبا.. ارتدى الملابس وثمة بلوز صوفي أزرق اللون كان معلقا بمسمار على الحائط، بدا يتفحصه جيدا ويشمه بطرف أنفه، فأعجبه وارتداه رغم صغر قياسه؛ من دون استئذان.. نظر إليه حنون باسماً كإشارة قبول.

وكان باقر قد انتهى للتو من إعداد عجينة الفلافل، بعد أن قام بتنظيف المحل وإبعاد المياه المتجمعة قرب مقلاة الزيت الموضوعة خارج الدكان، ومن ثم باشر بالقلي وهو ينتظر وصول خبز (الصمون) من جانب وانتهاء حنون من تهيئة اَلسَّلَطَة المعدة غالباً من الخيار والطماطم والخس.

وقف المجنون بالقرب من قلاية الزيت للحرارة المنبعثة منها، وليدفئ جسمه المرتعش. وكأول ظهور له في الحي كانت بصمته غريبة كحضوره، وهو يتناول كرات الفلافل الحارة ويأكلها بتأوه شديد وصراخ.

استوقف حازم هذا الموقف، خاصة وهو مستمر بنهم الفلافل، وعاب على نفسه تنمّره عليه، وكان وجهه يشع بابتسامة اعتذار، ما كان لينطقها حرفياً؛ ولم يفعل.

ثمل بالأكل وبدا رأسه يتحرك بحركة آلية غير إرادية، وما أن استقر قليلاً إذ دنا من بقعة ماء تحركها أقدام المارة، فغسل يديه بالماء والطين، ولم يجد ما يمسح به يداه عدا قميصه المستعار.. وأخذ ماسحة التنظيف، وبدأ يدفع الماء بقوة طائشة وانفعال، وكان الماء المُزاح يعود هادئا إلى النَصَّة؛ كأنه يمازحه.

فجأة ظهر على الجانب الآخر من الشارع درويش لم يُر من قبل بلباس ممزق من جهة، ومرقّع من جهة أخرى، وهو يعوي عواء الذئب.

وكان (هودي) الخضار المستأجر للدكان الثاني، بمحاذاة دكان الفلافل، وهو واقف إزاء المقلاة يستدفئ حرارتها. فصاح بالدرويش ساخراً: ما هذا.؟

ردَّ عليه بقناعة مطلقة وثبات: ارهاصات المطر.

أطلق حازم العنان لضحكة ساخرة، وهو ينظر السماء شزراً وإلى المجنون بطرف موارب: أظن السماء تمطر بالمجانين.

وإذا بالدرويش يمعن النظر بالمجنون الذي يضارعه شكلاً وهنداماً، وهو قائم بنزح بِرْكة الماء. وبين يسمع قولة حازم، فابتسم ابتسامة المدرك العاقل، وصاح على الفور: وامطرنا عليهم مطر السوء.

تنبه زبون كان يشتري الفلافل لما قاله حازم، وطريقة ردّ الدرويش فأوجس خيفة، فأطال ببصره سقوف السماء شاكراً: أؤمن أن الحياة ذاتها أمل، فكن يا ربِّ أملي ومنقلبي.

وإذا بالدرويش قد فارق المنظر؛ وغاب صوته بعصف بعيد...

*

دعابة القدر

"للآلهة روح دعابة سوداوية.. مثل امريكي"

وتجري البداية..

تقولين كان في بيتنا.!

سحبها حازم من شعرها وأخذ يطوّح برأسها، متسائلاً: مَن أدخلهُ دارنا مَنْ.؟

صبيحة كدمية خاوية بيد زوجها وهو يحكم قبضته في شعرها، ويتلّها يمنة ويسرة، لم تجد القوة لتفلت منه ولم تجد ما تدافع به عن نفسها، سوى القسم: أقسم لك...

فقاطعها ساخراً متهكما: قالوا للعاهر احلف قالت جسدي كافل.

لم يسبق لها ان سمعت بهذا القول، وان كانت قد اعتادت على نكاته السمجة، وهي كالفطيرة البلهاء تصغي وتضحك لأتفه الدعابات، وان كانت منها كمحل ومحط السخرية.

سمع الصراخ في الخارج، أسرع حنون وباقر وهودي الخضار، وكان المجنون بحركته الآلية يفتش عن مصدر الصوت.

دلف حنون بيت حازم وسحب صبيحة من بين يديه.. وكان حازم كعادته لا يكل ولا يملُّ من تهديد وتوعد زوجته حال الاستفراد بها.. بينما لا زال حنون ممسكاً بيدها، حتى اخرجها من منزلها إلى بيته.. وفي أثناء خروجها لمحت المجنون واقفاً، فتخيلته عارياً كما شاهدته أول مرة؛ وما زال بصرها يضرب تحت الحزام.

واستغل (هودي) الخضار الموقف بخبث، وهو يمسك بزندها الممترع بقوة، يحاول بذلك تمرير يده إلى ما طال من جسدها، محاولاً بذلك تهدئتها بقوله: لا عليك. كلنا لجانبك.

فحدجه حنون بنظرة ازدراء وتحقير، فأفلت يده؛ وتنحى جانباً.

**

لم تفُت سوى دقائق معدودة، وإذا بحازم يخرج بعصا غليظة، يحاول الانقضاض بها على رأس المجنون، وفي أول ضربة له، امسك المجنون العصا وسحبها بقوة، فافلتها من يده.. صارت العصا بحوزة خليف وبرأس آلي الحركة، وشفتين تذودين بعفوية، أراد أن يقضي عليه، لولا أن باقر (الصبي ذات السنين العشرة) أسرع له؛ وصار حاجزاً.

توقف المجنون صامتاً ساكناً، لكنه امتنع من التفريط بالعصا، إلا أن إلحاح باقر كان له كبير الأثر، فسلّم السلاح؛ وانزوى تحت العربة من جديد.

ولم تنته صولة حازم، فهذه المرة اشتبك بالكلام مع حنون: أنت ابن عم، ابن خال، ما أنت إلا رجل غريب؛ أريد زوجتي حالاً.

كان صوته عالياً مدوياً، فوثب المجنون من مكانه، ووقف كحائط صدٍّ، وهو ينظر لحازم بغضب.

فخرجت له أم حنون وهي تتلفع بطرحة خضراء وكأنها من نساء (العوالم).. ما أن رآها حازم إلا وسكت سكتة موت، كأنَّ فوق رأسه الطير؛ لم يحر بكلمة واحدة.

– تعال أدخل. وهي تومئ له بأطراف أصابعها.

دخل حازم مع أم حنون.. وعم المكان الصمت. وأعد باقر ساندويش الفلافل للمجنون وقدمها له عربون تعارف: أنا باقر. ما اسمك.؟

المجنون مشغول عن الكلام، وهو يتفحّص الساندويش، فأخذ يفرغ الفلافل في جوفه، وهو يرمي قطع الطماطم والخضار هنا وهناك.. وعندما لم تبق من الساندويش سوى خبز الصمون، أعادها إلى باقر وراح يكرع من ماء البرك شرباً وغسلاً.. وعاد واقفاً ينظر لا على التعيين بحركة

لولبية، يحدق بالوجوه بشكل عشوائي. لمح طالبا لف كتبه المدرسية بجريدة، أسرع إليه وهو يضرب على الكتب.

الطالب بحالة من الاستغراب متسائلا: ها.؟

أصر المجنون بالنقر على اللفافة.

الطالب: هذه كتبي.

لم يقف النقر وهو يومئ إلى اللفافة.

الطالب: الجريدة.

هز المجنون رأسه بالإيجاب.. نزع الجريدة من بين الكتب وسلَّمها إليه، وهو يهزُّ يده استخفافا. وبالطبع كان هذا الموقف لم يفت هودي الخضار مثله مثل سائر المواقف، وهو ينظر للناس بكل شاردة وواردة، وشغله الشاغل البص والقص.

ولطالما حذّره أبو حنون مراراً بقوله: عينك على مالك؛ ودع الخلق للخالق.

لكنه بطيء الاستيعاب، فضولي الطبع، نزيز شر.

لم يتركه فضوله إلا أن يعلق على المشهد قائلاً: سبحان الله. حتى المجانين تغيرت، وسارع ليسأله...

لكن المجنون عاد إلى موطئه الجديد تحت العربة؛ وهو يقلب صفحات الجريدة بغضب.

**

ساعة من الأخذ والعطاء...

عاد حازم لبيته برفقة زوجته المصون. وكانت عيناها تفتش عنه. عن المجنون التي جنت به رغبة محروم بالجنة.. اصطادته بنظراتها المحمومة، غير أنها تخشى أن تكون سهلة الصيد بذات الوقت لزوجها الذي كان يرافقها خطوة بخطوة.. فحدجها باستياء بالغ وتجهم، لكنه سرعان ما أشاح ببصره لمرأى المجنون الذي بدا مبحراً بصفحات الجريدة.. ادخل زوجته للبيت وعاد منتصباً على ذراع العربة، حائرا بكيفية إخراج المجنون، وإبعاده كلياً عن بيته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فصاح بحنون: أبعد هذا البلاء عن عربتي وبيتي.

لم يسبق لحنون أن تعامل مع هكذا موقف، فهو ما زال شاباً يافعاً تنقصه الحكمة والتدبر، غير أنه لم يكن مقداما في الأمور، وكثيراً ما كان متواريا وراء أبيه؛ وإن كانت أمه تمثل السلطة العليا.

رجا حازما ان يتريث لساعات، حتى يعود أبوه من العمل، وهو من سيتدبر الأمر ويحل هذه الأزمة المؤقتة.

ما كان حازم ليقنع بهذا التسويف، وانتظار أبي حنون قد يعقّد المسألة.. وكلما طال بقاء المجنون كلما أستوطن المكان، وعزز موقفه. فمن ذا الذي يقدر أن يقول للمجنون على عينك حاجب.

فعاد للبيت وارتدى أفضل ثيابه، وإن كان كلها مثلها مثل. فلم تسمح له نفسه يوماً بشراء ملابس جديدة، وهو لطالما قال: إلى أين أنا ذاهب.؟ من البيت إلى (السكراب)، ومن الخردة إلى تاجر الخردة.

ويذكر في يوم من الأيام كان قد سكر، فخسر بالقمار كلّ دينار كان يملكه، ما اضطره لبيع ملابس زوجته الداخلية على أقرانه. وأخذ يتندر أحدهم: هذا (شورت) صبيحة. وآخر يصيح: هذه صدرية صبيحة. وذاك يهتف: ربحت قميص نوم صبيحة. وعندما عاتبته زوجته، ضحك ضحكته البليدة السمجة، قائلاً: ما تصنعين بقميص النوم.؟ نامي بحضني وعندما تستيقظين، ستدركين أنك لست بحاجة لكل شيء سواي.

كلما تتذكر زوجته هذا الموقف، وتبجحه بالأحضان، وأنه رجل الليل الأوحد.! تبصق على حظها في هذه الزيجة؛ التي لم تر فيها حرارة الفراش، واحضان الأمل.

**

يطرق حازم باب المنظمة الحزبية، لمعرفته الوطيدة بالرفيق نايف (أبو عرب) كما يظن. انتظره طويلا عند بابه، قام وقعد، مشى وبرك، يتفحص وجوه الداخلين والخارجين.. الساعة الجدارية تسير ببطء، مع

أنها قطعت شوطا غير قصير. تثاءب أكثر من مرة، أشعل سيجارته.. أشار عليه أحد الحراس: ممنوع.

أطفأها بسرعة وأخفى عقبها في جيبه. فكرّ بالذهاب إلى المراحيض لكنه تريث بهذا المشوار، لكونه كان يتوقع بأي لحظة قد ينادى عليه. استبطأ ذلك وعاد يفكر بالمراحيض – زيارة شاملة– لقضاء الحاجة، وشرب الماء، والتدخين كلها بضربة واحدة.. فحث الخطى سريعاً. لكن الحارس صاح به: أين.؟

متلكئا: للتواليت.

– وإذا طلبك الرفيق ما عساني أخبره.

كرر ذلك بعجالة: للتواليت.

الحارس بعصبية: أنت غبي، اقعد.

تسمر بمكانه دون أن ينبس بحرف، وإذا بصوت من داخل القاعة ينادي باسمه، على الرغم من أن النداء كان مسموعا بالخارج، إلا أن حازما كان ينتظر أمر الحارس. فصاح به الحارس: قم الرفيق ينادي عليك.

دخل حازم مبتدئاً بالسلام.. لكن ليس بالضرورة أن يرد المسؤول التحية. مدّ يده للمصافحة، فصاح به الرفيق: اجلس.

كان يفصلهما طاولة مكتبية كبيرة، وكان الرفيق بين يديه صحن فواكه بالتفاح والبرتقال، وبيده سكين صغيرة، وهو يقشر التفاح على مهل، ويقطعها على شكل قطع صغيرة، ويلتقطها بنصل سكين جيب قذرة واحدة تلو الأخرى. وحازم ينظر إليه بعين كاذبة.

– ما وراءك.؟ هكذا بدأه السؤال.

حازم يزدرد ريقه: سيدي...

يقاطعه: قم أعطني جهاز اللاسلكي.

فنهض مسرعاً لجلب الجهاز.

صاح به مرة أخرى: معك (باكيت الكلينكس).

جلب الجهاز وعلبة المناديل الورقية ووضعهما بين يديه، ورام الجلوس. فصاح به: لا تقعد، ناد على الحارس.

الحارس كالجاسوس واقف برأس الباب. دخل على الفور: أمرك رفيقي.

– العجلة خلال خمس دقائق.

– تأمر رفيق.

خرج الحارس، ويئس الجالس؛ فاستأذن بالخروج.. أومئ برأسه بالأذن. وقبل أن يخطو خطوة واحدة خارج المكتب، صاح به مجدداً: تعال.

ملأ الرعب نفسه، واقترب خائفاً، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، فقال له: هاك هذه التفاحة.

حاول أن يمسكها. فأرجعها إلى الصحن قائلاً: لا. أنا أحب التفاح، خذ هذه البرتقالة، إنها من برتقال مدينتي، مدينتي بستان كبير، أفضل من بساتين الجنوب السبخة التي تشبه وجوههم. أنا ابن مزرعة كبيرة، تربيت بين المشمش والبرقوق والرمان والبرتقال، ما عدا النخل. وحتى النخل غدار مثلكم يكمن في قلبه قناص العدو؛ خونة.!

وظل قابضاً على البرتقالة قبضة موت. وهو يجمجم بكلمات حقد دفين تطول شمال البلاد وجنوبه.

**

سبر الطريق بخطى حثيثة، وقد علق بلسانه سبة كان يرددها طوال الطريق: ابن كلب.. ابن كلب.

وهو يتلفت يمينا وشمالا مخافة أن يكون وراءه من يتقصى أثره، حتى أقترب من زقاقه. حضرته فكرة التعامل مع المجنون وان دعا الأمر إلى رشوته. وسرعان ما تراجع لا لحكم الرشوة وتبعاتها، بل لأنه يحرص

ألا يخسر شيئا، فهل تكفي وجبة طعام، أو يتكفل معطف وثياب قديمة بإبعاده ولو بشكل مؤقت.. وصل باب بيته ولم يشعر أنه أمام الباب. أطل تحت العربة، لا أحد هناك. تنفس الصعداء، لكنه ما أن دفع باب بيته، وسُمع صرير الباب.. حتى خرج المجنون من دكان حنون، باتجاه العربة.

تجمد حازم في مكانه: يا للحظ السيء. هكذا ندب حظه.

بينما كان المجنون ينظره بمقت، وهو يصفُّ بقطع من بلاطات الأرصفة والطابوق، كسُدة فرشها بالجريدة، وما وجد من الورق المقوى.. وقعد غير مبال، فتح أزراري معطفه الكبيرينِ، واخرج مجلة بلا غلاف، وهو يدقق النظر بصفحة ويتخطى صفحات.

استشاط حازم غيظا، وتمنى أن يقتله بألف طعنة، ويأكلُ لحمه نيئاً... استقبلته صبيحة التي اعتادت بفضله على إلغاء التحايا والمقدمات: ما بك.؟

وكعادته المملة باختصار الإجابة وتعويمها: المجنون.!

– اجلس، سنجد حلاً ما؛ بلا تهوّر ولا عصبية.

هدأ قليلا والأفكار تزدحم في رأسه: ما رأيك.؟

– بم.! لم تعتد يوماً أن يشاركها الرأي، ما فاجأها ذلك، وداعب مشاعرها؛ فظلت فاغرة الفم والأذنين.

– ندعوه للغداء، نهبه بعض الملابس، فراش، وسادة قديمة، تلك الفرشة البالية؛ على قول القائل: (أطعم الفم، تستحي العين).

سكتت صبيحة ودائرة السوء تقذف بها بأحضانه، وبمكر تحوك خيوط الرغبة، وإن كانت واهية، إلا أنها قد تكون البداية؛ وما الضير أن تجرب. قالت بالتواء، وهي تظهر شيئا وتبطن أشياء: لا أظنها فكرة سديدة. قالتها وخرست.

حملق بوجهها طويلاً، تفرّس ملامحها، صاح بها: رأيكِ وحذائي البالية.

دفعها عن وجهه، وخرج لحجرة الاستقبال. ضحكت بسرها بعدما نجحت خطتها في إبعاد ما يساوره من شك عقيم، وباتت جذلى منتصرة من الداخل إلى الخارج المنتعش. ولم تنتبه إلا بزعيقه المعتاد وصوته الهادر: الغذاء.

**

جلبت صينية الطعام بطبقين من الأرز، وكأستين من مرق الفاصولياء، وأرغفة خبز، وخضار.. كاد المجنون أن يخطف الصينية لولا أن حازما قدمها بين يديه، وحاول أن يدفع له بطبقٍ ويأخذ الآخر. إلا أنه أبى ذلك وحوّط الصينية بكلتا يديه، أفرغ المرق على الأرز في ماعون واحد، وأكل بشراهةِ كأكلي لحوم البشر. وبذات السرعة التي بدا بها توقف، وهو ينظر بوجيههما المصوبين نحوه.. استرخى قليلا، سند

ظهره على الحائط، أشار إليهما بالاقتراب، اقتربا من الصينية، وكانت الزوجة تتدافع على الأكل لغاية في نفسها؛ ما اضطر حازم لدفعها للخارج.

قام المجنون بسحبها إلى الصينية، على الرغم ما كان عليه رأي زوجها. وأكلوا جميعا بطريقة بدائية، بعد أن توحدت مختلف الأصناف في صينية واحدة، بعيدا عن الصحون والملاعق وكل ما يتعلق بإتكيت المطاعم والمآدب. تصحرت الصينية من كل حبة ونبتة وبقل. فقالت صبيحة: أما زلت جائعاً.؟

كعادته لا قيمة للكلام عنده، فالعيون إن لم تكن كافية، فالإشارة تكفي، لكنها فهمت من السكوت المزيد، فسارعت لتأتيه بقدرية الأرز والمرق.

ضحك حازم وهو يردد: فاتحة خَسْرانة.

وأخذ يفرغ ما في القدرين بالصينية، فسحب المجنون الصينية بكلتا يديه القابضتين بقوة بعيداً عنهما، وهو ينظر لوجيههما الواجمين فأعادها؛ وبدا السباق حتى آخرها.

حملت الزوجة كل المواعين للمطبخ، وأشار حازم للمجنون بالغسل. لكنه استأثر مص أصابعه اصبعاً اصبعاً وراحتيه، ومسح ما بقي بمعطفه.

صاح حازم بزوجته: الشاي.

والتفت إلى المجنون، متسائلاً: شاي.؟

يدرك المجنون بأن الجواب لا يغير شيئا من الواقع، وأن شرب الشاي من واقع الضيافة.. فشرب القدح الأول منه، وكان قدح بلاستيكي، تجرعه على حرارته بدفعتين متتاليتين؛ ورمى الكوب خارج الحجرة.

فالتقطته صبيحة وملأته من جديد، لكنه أبى شربه، وأشار على قدح حازم الخزفي الناصع البياض، فأفرغ حازم شاي القدح البلاستيكي فيه وقدمه إليه، فاحتساه بسرعته المعهودة؛ كأن مقاييس الحرارة في لثته معطلة.

عمَّ الهدوءُ المكان وران الصمت في الأرجاء، فبادره حازم: ما اسمك.؟

قام المجنون كأن السؤال لا يعنيه، خرج من باب الحجرة إلى باحة البيت متجهاً للخارج.

صاح به حازم بتذاكٍ: الحمار.! وهو ينظر لردة فعله. ثم استطرد القول: يسألك عن عربته.

توقف المجنون وهو يمعن النظر بالحمار، واقترب منه وهو يمسح ناصيته؛ تراجع الحمار كالمستفز.

بينما ذهب المجنون يهادنه بوداعة، وتحدث مع الحمار بعينين تقدحان بالانكسار والاستسلام الكامل لواقع الحال.. فتماسا جسديا بعد

شعور الحمار بالأمان.. أخذ المجنون يداعب جسد الحمار فارتفعت مناسيب الحميمية لديه.. وكان حازم ينظر شزراً حانقاً على نفسه، يرجح أن تكون قوة الحمار نابعة من قوته الجسمانية، وتمادى بنظرية التطور، إذ ذهب بها إلى لياقته البدنية، لكنه لم يقف عند هذه النكتة؛ فعزا ذلك بديلاً للعقل. وسدد بصره إلى المجنون، وكأنه المعني بذلك.

بينما كانت زوجته صبيحة تذوب شبقا وحسرات، وهي تستذكر مقالة زوجها وسؤاله المستفز: تقولين كان في بيتنا.!

ليته؛ يبقى العمر كله معنا.

*

طلقةُ الشك

"أدر له خدك ولا تقاوم الشّرير... السيد المسيح"

في الوقت الحاضر...

ظلَّ حنون بين نارين، وكلُّ نارٍ وحدها تشعلُ حرباً ضروساً. نارُ الزوجةِ التي وضعت العصا بالدواليب، وأوقفت عجلة الحياة وأثارت نزعة الشك، ونشّطت هاجس الخوف المستحث في أرجاء نفسه المضطربة أصلاً.

فمنذ حادثة أبيه القديمة، وهو يحاول جهد الإمكان، تجنُّب أيّ صدامٍ مهما كان طفيفاً وبسيطاً.. بعدما نصحه أكثر من طبيب بأنّ السكري لديه غير مستقر وعليه أن يبذل جهداً أكبر لتلافي الضرر، وعدم تناميه بشكل مزمن.

ونارُ الأمِّ التي تفرّط بالجميع، ما عدا خليف المجنون الذي لم يعد ذاك المجنون الدخيل الذي استضافته وحسب، فهو اليوم واحد من العائلة؛ إذا لم يكن أحد اعز أبنائها، والذي يتمتع بكامل حقوق البنوة.

مضى عليه الآن قرابة ثلاثةَ عشرَ عاماً ولم يروا منه أي أذى، ولم يُسمَع عنه ما يُسمَع عن غيره من المجانين.. وكانت الأم وزوجها يجزمان بأنه أكثر من عاقل؛ وإن أتفق الجميع على جنونه.!

لا زالت صورة هنية تنزو على مخيلته كما ينزو القرد على الشجر، وهي تضعه بين خيارين أهونهما شر.

يستحضر صورة ابنته هند التي انسلت من صلبه إلى رحم أمها. لكنها كانت بنت أمه الروحية العرافة (منعوتة).

وكانت على شيء من الدماثة والدلال، ما يرفعها إلى مصاف كل عزيز. فكانت له الحبيبة والصديقة والأخت والبنت؛ وإن أي أذى يطالها قد يكسر ظهره ويفتُّ كبده.

فكرّ حنون عاجزاً، بأي حجة ينطلق، ومع أي إذن صاغية يتحدث، وكيف تكون البداية، علق بالأسئلة وتاه بالتوقعات بما لا يحسد عليه أحد.

توحل حتى ركبتاه، هو يسمع اطيط نعله بالطين، في مزرعة كانت على مقربة منهم. كان قد غار بها دون أن يشعر.. كان ثمة كلب ينبح بلا هوادة، أضاع في نباحه زقزقة العصافير.. أجال النظر بالأرجاء، النخيل التي كانت تصطف بطابور منتظم بعثوقها الدانية بالثمر، قد حُرث منها ما حرث، وقطع الآخر، ومن سلم من فأس الحرب ظل مشذب الأجنحة، سعفة هنا وسعفات هناك، واحدة مخضرة وثلاث يابسات.

كل شيء حوله ما عدا نفسه، كانت تلوب في عوالم الشّك.. يجرُّ رجليه المثقلتين بالطّين. تمنى وقتها لو عاد للطين والحمأ المسنون؛ نظر لظل وجه العالق بالماء؛ بصق عليه، وهو يقول: وهل ثمة حمأ بعد هذا.؟!

**

وقف حنون على ابنته، تلك التي تترامى ضحكاتها ملء البيت، وببراءتها الملائكية تتعلق برقبة أبيها، الذي بدا شارداً في أصقاع الشك والخوف.. حلَّ يديها المطوقتين رقبته وامسكها من معصميها، وأخذ يمرجحها بالهواء، وهو يدور بها عدة دورات حتى كاد يسقط، فأنزلها؛ وراحت تترنح كالثملة.

جلس وأجلسها في حضنه، وراح يقبلها على جبينها. فبادرته ذات التقبيل لا على التعيين. فصاحت بها جدتها، بلطف: انزلي من حضن أبيك.

بصوتها الناعم العذب قالت: إما حضنه وإما بحضنك.

الجدة بهدوء تام: أنت كبيرة الآن.

– وهل أكبر على أحب الناس إليّ، فأنا أبقى طفلتكم الصغيرة المدللة.

أغاظ أمها هذا الكلام، وهي تنتقل بين أبيها وجدتها، دون أن يكون للأم ما يذكر بحقها. فهي التي ربت وسهرت، سرعان ما همش دورها وأعدم جهدها كأم. ما زادها لؤماً وأنانية، وهي تحاول أن تقلب الأمور رأسا على عقب، وتهد البيت على أهله.

كان حنون يترصّد حركاتها، تقاسيم وجهها، نظراتها، كل ما فيها لا يوحي بخير. حتى خوفها المزعوم على ابنتها، لم يكن سوى حلقة فاشلة من مسلسل كيدهن. هكذا ترجم حنون حالتها البائسة. فشلت بتقمص دورها النسوي كزوجة وام. ولطالما تذكر مقولة خليف: "في البيت أفعى مجلجلة".

وآب لرشده كما يؤوب المغمى عليه لوعيه، وهو يجمجم بينه وبين نفسه: ما أصنع، إذا كانت الأفعى أم ولدي.. أحبها.؟ طبعاً لا. ولسبب وجيه أنها لا تحب إلا نفسها.! هي زوجتي لا أنكر ذلك، ولكن أيضا لا أؤكد ذلك، لسبب أكثر وجاهة وحكمة، أن زواجنا مشروطٌ بالأسرة مع إيقاف الحب.! أنها تريد كل ما تريده سائر النساء، بيتاً مستقلاً، رجلاً مطيعاً وحبَّ نفاق. وحبذا يكون مطية لرغباتها.

وبمناسبة ذكر المطية، فأنت إن لم تكن حماراً صالحاً، تدخل بيتك محملاً بكل ما لذّ وطاب، كموّصلٍ للطلبات، وتخرج محملاً بالنفايات، فأنت حمار كسول، لا تلقى عند النساء أدنى قبول.

**

جلست هنية تحدق بزوجها كلما سرح بأغنام أفكاره، وهي تقرأُ سكرات التيه في وجهه، وتقول في غور نفسها: وعزة هبل. لم أكن هنية بنت أم هنية، إذا لم أقلب الدنيا على رأسه وأفجع (منعوتة) به.

ليس ثمة عداوة سابقة وإنما ثأر للنفس، فهي تريد زوجها رهن تصرفها، وملك يديها، يلزم طاعتها كالأبله، فلا يقدم رجلا ولا يؤخر أخرى إلا بمشورتها، بيدقا في رقعة شطرنج تحركه أنامل رغبتها متى ما شاءت التضحية به فعلت.. كيف وحنون كله لأمه، وكله لخليف، وكله لابنته وابنه؛ ولا شيء منه له أو لها، تبقى هي آخر تفكيره؛ إذا ما بقي في تفكيره آخر.

كلما يحرص الاقتراب منها كحبيبة، عادت لتكون زوجة غبية، تقدم خدمات الطاعة في وقت هو أحوج ما يكون للمرأة. امرأة متمردة تشاكسه لعبة الحب، لا يرى من وراء طلباتها الصفراء، أن تكون الحاكمة المستبّدة التي تستأثر بالمال والفيء.. لم يسبق أن ادّخر مالاً بعيداً عن نظرها، أو رفض لها طلب صرف معقول. كل مدخوله المادي كان بحكم الشيك على بياض بين يديها وتحت إمرتها، على الرغم من أن الظروف العصيبة التي مر بها وعائلته، وظروف البلد القاسية بعد الاحتلال، وفقدان أبيه في أوج حاجته له كشاب وحداني بعد ان خسر أخيه شهيداً في الحرب، كانت زوجته تنعم بكل ما تحتاجه المرأة وفق المقبول، وأكثر.

في كل مرة يسأل نفسه عن الحب، يدرك أن الأمر فاته، فزوجه من النوع الذي تعنى بالسلطة لا سواها، مثلها مثل السلطة البوليسية التي اعتدنا عليها كما اعتدنا على شاي العصر والكعك.. وهذا الأمر ليس غريباً عليه، فهو قد آلف مثل هذه السلطة لأمه، وهي السلطة التي أودت بابيه قتيلا لا لسبب سوى رغبة في نفس (منعوتة)، والذي كثيرا ما احرجه اسمها بين اترابه الصغار في الحي وهم ينادونه ابن (ملعونة).. فقد تعلّم كثيرا من تجربة أسرته واتعظ بما يكفي، فلا سلطة لأحد عليه سوى الحب. نعم هكذا يقول حنون، وباستمرار.

الحب وحده من يدفع عنه بكلتا يديه الضرر، الحب الذي كلما سأل زوجته عنه؛ اعرضت. امرأة تفضل المطبخ على الفراش.!

حتى ذات يوم عارضه خليف، قائلا: ألم تسمع أن من الحب ما قتل.

أجابه بتباهٍ: فليقتل أن شاء.

أدرك عندها خليف بشطره العاقل، أن من الحرمان ما قتل.

**

في حجرته الصغيرة التي كانت دكان خضارة، ورتبت بطريقة ما لخليف، بعد إزالة باب (الكبنك) الكبير منه ورفوف الخشب المترامية هنا وهناك بشكل غير منتظم، ودكة خشبية صغيرة كانت موضع القبان والدخل، ومن ثم بنى جدارا بباب صغير، وجدارا داخليا لحمام ومغسلة،

وأثث بسرير حديد لنفر واحد، مع خزانة ملابس صغيرة، وبعض مقتنياته التي لا تعدو عن كدس من صحف قديمة.

وقف حنون على رأس خليف، الذي كان ممددا على سريره بعينين مفتوحتين، وعقل غائب، فنده عليه: هل أنت نائم.؟

أجابه بازورار عينيه رغم بقائه مستلقياً، وهو يحرك عينيه بشكل دائري كأنما يطاردان ذبابة: سؤال غبي.

ضحك حنون، وجلس على طرف السرير بالقرب من رجليه، وقابله بوجهه.. وقد وضع رجلاً على الأخرى وهو يميد بقدمه قائلاً: أنا في ورطة. هكذا بدأه.

لم يلتفت خليف ولم يحرك ساكناً، فإنه يدرك ما يرمي إليه، فضربه حنون على بطنه يستحثه على النهوض: قم وأجبني؛ ما أصنع.

تزحزح خليف من مكانه بقدر لا يمكن معه الاستواء: زوجتك. قالها عن قناعة ودراية.

كانت كل مشاكل حنون زوجته، وزوجته وحدها، استوى قاعداً وهو يحكُّ فروة رأسه، بشعره المشعث، ما لفت انتباه حنون، ليقول: لا بدّ من حلاقة هذه الشعفة.. لم يسترعِ انتباهه ولم يبال، وبحركة رأسه اللولبية: عليك برأسك.

– أخبرني ما أصنع.؟ دخل في صلب الموضوع مباشرة.

– لا خير بعاقل يستغيث بمجنون، إلا إذا كنت تريد أن تأخذ الحكمة من أصولها.! اقتلها إذاً، احرقها، حرياً بك أن تبيعها للنخاسين، بع بعض أعضائها الزائدة، أو انتحر بها؛ ستدخل الجنة بهذا الفتح العظيم.

واستلقى هذه المرة على بطنه، وأطلق العنان للرِّيح. وقلّب نفسه جانبا وهو يسأل: ألم يبق شيء من الفلافل.

خرج حنون؛ وفيه من الريح العفيف ما يفجّر المكان.

**

تذرع هنية الغرفة طولاً بعرض، وتجمجم بلغة مطلسمة وكأنها تعدُّ طقوس مراسيم وثنّية؛ لو واتتها الفرصة لتحرق البيت لفعلت.

لكنها تدرك أنها فاشلة في كل شيء، حتى أعمال الشعوذة والعوالم التي تعلّمتها من هنا وهناك ما كانت لتنفعها، خاصة وهي لا تجيد كسب زوجها فضلا عن ابنتها، وأي عمل وسحر ما لم يتقن فقد ينقلب السحر على الساحر؛ وهذا ما كان ينقصها.

دلف حنون إلى غرفته، وجد زوجته مزيّنة بتصنع فاحش، وحبذ لو كانت على طبيعتها.. لسرعة ما تذكر نكات حازم، وهو يسخر من زوجته، بعدما طلّت عليه بأبهى زينتها وهي تستحثه للفراش. قال: ما الذي تغيّر بك، نعل وجهك أعني جلد وجهك هو ذاته، عدسات القطط بعينين جاحظتين، شفتاك اليابستان، قميص نومك الذي كسبته من القمار، أما شموع الميلاد، فاغرب ما فيها أننا لا نعرف حتى تاريخ ميلادنا.

استاءت هنية كثيراً، وتمنّت الرصاصة التي طالته بدل أبيه، لو أنها نفذت في صدره، فهي اليوم زوجة شهيد جرائم الإرهاب، وامرأة فارس جديد يمتطي صهوتها ببسالة وفروسية.. وتدثرت وفي لسانها شريط من سباب، لو انها فتحت صمام الصمت، لأغرقت الغرفة بالزعيق والعواء.

خبر حنون تصرفاتها المنطوقة منها والصامتة، وهو يدرك ما تتسم به من خلق سيء يطابق خلقها الدميم.. وجرت ذكريات حازم الغالبة على ذهنه، وتقريعه لصبيحة وهو يقول: لا اطيق المرأة المربوعة الا مع ربعية عرق زحلة..

فثار صدى العرق حفيظته، ووثب من مكانه متمنيا لو أنه يحتسي الربع والنصف وأكثر، ويسكر لينسى أن الأفعى التي تمتد معه طولاً بطول على فراش واحد؛ فينام حتى ينسى كل الوجوه العالقة في ذهنه وكل الصور.

**

تعال لنتفق. هكذا صبّحته هنية.

يا له من صبح عطر، يبدأ بصلح جميل بعد حرب ليل.

أدر لي خدك اقبّله.

فعل ولِم لا يفعل فخده أرخص عنده من علبة التبغ. لكنها بادرته بصفعة خفيفة فأدار لها الخد الثاني وهو يقول: ولا تقاوم الشرير.

ضحكت فاستشعر شيئا من المسالمة، قائلة: تعرف...

قاطعها بوداعته المعهودة: أسدي إليّ صنيعا.

أجابت بنظرات القبول... قال: لا تقولي احبك.

قطع بذلك أول خيوط الغواية، وطرقات الاغراء، واغلق أبواب حصونه، قال بهدوئه المعتاد: أنا راضٍ بك، أنت أسرتي؛ فأرجو أن لا تجعليني ذلك الرجل المزواج.

صُعقت، وادارت جسدها كله، ووضعته بأنفه؛ ودبرها يعبق بعرق النوم والصنان.

*

الحالمون

وتحكى البداية بطريقتين...

الحالمون بالمدينة الفاضلة واهمون...

وتحكى البداية بطريقتين: الأولى ما نقلت على لسان (حازم العيدي) بأنه ربط خليف في حظيرة الحمير، وأخرج الحمار للعربة.

ومرة يقولون: إن الحمار استظرف خليف، واستأنس مجالسته، وأتاح له الإقامة في المكان عن طيب خاطر، وشاركه حظيرته وعلفه.

لا أحد بالتحديد يعرف القائل، لكنه دار على لسان عجائز الحي، ما انتقل سريعاً كالنار بالهشيم.. حتى أن خليف سأل الحمار أكثر من مرة عن صحة هذا القول وسنده، ومتانة ما بني عليه، وجزالة كرم الحمار وبذله. لكنَّ الحمار دائماً ما ينفر؛ ويدير ظهره للمحكي.

وكان حازم حازماً بالرد على هذه الأقوال والتكهنات بتهكم وسخرية: إذا كان صاحب الحمار بخيلاً لدرجة أن يشارك الحمار علفه، فمن أين يأتي الحمار بكل هذا الجود والكرم؛ إلا أن يكون الحمار لصّاً حاله حال حرامي البيت الذي ترّقى إلى أن يكون حرامي وطن.!

ويقول ذات مرة جوّعت الحمار لدرجة توقعت معها أن يأكل زوجتي وأستريح من بلاهتها؛ فكان منه ان أكل معطفي ولحافي.. فعاب عليه أحد ندمائه ذلك: اعتقد أنك تعني التيس وليس الحمار.

فلم يعبأ به. وأكد حازم أكثر من مرة وفي أكثر من محفل: بعد أن استضفته في بيتي، وأكرمته بمعرفة الحمار؛ ظل خليف يتناوب الحظيرة مع الحمار. فأوقات (كار) الحمار وعمله، يكون خليف قد أطلق سراح العربة، وما أن يعود الحمار سالماً غانماً. يكون خليف قد افترش أسفل العربة بالورق المقوى وبطانية عسكرية، قد وهبتها له ووسادة من القطن الأسود المضغوط اصلب ما يكون؛ عافتها الرؤوس وباتت بين مهملات التكايا. وجلبت له كنزة صوف تقيه البرد. أما الأكل فلم أبخل عليه بالمطلق. اشتري له الفلافل مجاناً بعنوان كل ما يعطى صدقة، وكان باقر ولداً ذا دين وإنسانية لم يبخل عليه بالخبز البائت والسلطات.

اعترضه نديمه السكران: وهل ثمة فرق بين الدِّين والانسانية.؟!

حازم بحذلقة: ثمة فرق جوهري، ما لم تكن إنساناً فأنت أبعد ما تكون من الدين.. ولأنك مصداق البلاهة لا تميز بين الناقة والجمل، كجند السلاطين، ومن لف لفهم؛ عبيد الخليفة وأئمة الجور والضلال.

فبُهت السائل مصدوماً بالإجابة، مخافة أن يعرض عليه مثل هذا السؤال في ايجاد الفروقات السبعة، إذ إنه لم يقدر على إيجاد فرق واحد،

خاصة وهو ينتمي لعالم أكثر حيوانية بشكل وبآخر ولو ضمنياً؛ فمن عاشر القوم أربعين يوماً وأكثر...

حازم يستأنف الحكاية:

كلما أرنو إليه أحسُّ بشخص آخر وراء هذه الصورة الصامتة، المستميتة في بعض الأحيان على إخفاء جوهرها، وإبراز معدن لاثهُ الصدأ.

تفننتُ في محاكاة أحاسيسه، وقد أرهفتُ حواسه بسماع الموسيقى، فعلاً ما نكون لولا الموسيقى، هذه القوة الناعمة، كيف يكون شكل الدنيا إذا صمتت الأشياء غير بور ومحول.! أظن من دون الموسيقى ستكون الحياة غلطة كما يقال. كانت الموسيقى تلهب اسماعه، الطرب القديم يؤجج رغبة أنكرها، وإن كانت تتحفز الظهور والبوح.

بدت يداه كأيد المايسترو، كان كالقصبجي لأم كلثوم، وكبليغ لوردة الجزائرية، وكنشيد: "طالع لك يا عدوي طالع من كل بيت وحارة وشارع". بالفعل طلعنا من كل مكان؛ وظل العدو يصول ويجول.

بينما كان احساس خليف الصارخ يقول: (ما نكون لولا الرحمة). وهو يجسد لكلِّ نوتة اشارة، ولكلِّ صوت شرود لب، وسكرة.

شرود لب.! من قال ان هناك ثمة لب.؟ هكذا قاطعه نديمه.

حدجه حازم بنظره امتعاض، وأعرض عنه مترفعاً.. وأراد المضي في حديثه لكن أفكاره شتتها النسيان، وأطبق كفه اليسرى على فمه؛ فالحديث مع السكارى اغنية في الخلاء.

لكن ثمة طلبٌ مُلحٌّ، أراد تبيان الحكاية من أحد أبرز مصادرها، وأن لم يكن أبرز مصاديقها، ليس من باب الشوق والعجب بها، بل ارضاء لهوى في نفوسهم وهوس تطفل، خاصة بعد ان صار خليف حكاية الحي وتندر القاصي والداني؛ المجنون الذي بات حكيما وعارفا. او المجنون الذي كان مخبراً؛ وربما لا يزال.

كانت صبيحة تشك بأنه ممثل بارع. هكذا بدأ حازم الحديث، وتابع: أنه على ما يبدو مخبراً رفيعاً، زرعته الحكومة في أحشاء الحي، بين ساحرة تدّعي العرافة، وبائع خمر وقمَّار... راعني هاجس الخوف، وسلمت للشك مفاتيح نفسي، فأخذت تخزني أبر الاسئلة: (فهل انقلب النظام ضدي، رغم الإتاوة التي زادت على النصف. وهل اوشكت نهايتي قريبة).؟ هكذا قلت لنفسي: هذا شأن من يثق بالحكومات.!

كان أبي كثيرا ما يقول: لا أحب السياسة، ولا أثق بالسياسيين، ولا أرجع لهم في دنيا ودين.

اعترضه ذات المعترض: أبوك.؟!

سكت حازم سكوتاً مفاجئاً، كالذي ضغط على مكابح الصمت، وانزلق في أتون العدم.. مدّ رجليه على نضد القمار الواطئة الارتفاع. مدد جسده المنهك بفضول الاسئلة، ونبشِ مقابر النسيان.

**

كل الخوف أن تكون صبيحة محقة، ويكون ذيل الكلب هذا – خليف – من أمن الدولة.

سأبيّت له هذه الليلة خطة كاملة، سأقتله وأريح نفسي وكل أهل الحي من شرِّه.. الحكومة لم تتب بعد، ما زالت تزرع جواسيسها في كل مكان، وهي متحوّطة. فدائماً ما تراقب الجهاز الأمني بجهاز آخر، وتزرع الشكوك في داخل الصف الواحد وأقرب المقربين. وتساءل: (هل يعلم أبو عرب الرفيق نايف الضاري أن الأجهزة الأمنية بدت تراقبه للإطاحة به، فهو شريك بالنصف في تجارتي، فإن كان لم يعلم بوجود من يراقبه، فلابد لي بإخطاره، وأن كان يعلم فالمقصود أنا، وغير بعيد أن تكون (منعوتة) والتجمّع النسوي الذي لم ينفك في إرهاب رجال السلطة بالإغواء والإغراء... على صبيحة أن تتحقق من هويته أن تستميله وتكشف نواياه، ربما تلتقط معلومة ما، معلومة واحدة كفيلة بتأكيد هويته، لكن هل لي إن أضحي بزوجتي.. بصق في الهواء، زوجتي منذ متى كنت مهتما بها، لولا اسمها – المعروف ضمن أسماء الاناث – لظنَّ البعض أنها أحد

الحوذية الذين يعملون معي. خاصة أن شكلها يوحي ببلطجي اعتزل العطفة؛ وقعد بالبيت بعد تتالي الهزائم.

ثم حكَّ جلد لحيته المحلوقة للتو، قال في سره: (إن قتلها خير فعل ومعروفا لم أنسه مدى الحياة، وأن...)

توقف. كأنه يحس بالغيرة والشهامة واستطرد: لا يمكن أن تكون صبيحة ضعيفة لهذه الدرجة، لا يمكن أن تتنازل عن شرفها لهذا المعتوه، نعم لم تكن جميلة لكنها شريفة ومحافظة؛ أو أقلها ممتنعة... أنا الذي، أنا زوجها وحليلها ما كانت يوما لتسلم نفسها لي بسهولة؛ حتى وأنا أهم بها كانت ثابتة ورزينة.

توقف تنهد قليلا، وبصوتٍ متهدج تساءل: (هل حقاً ما أقول، أم أنا أكذب. ولِمَ أكذب، لأبرر عجزي أو لأدفع بها إلى أتون الفساد، حيث تنتهي تحت الأرجل؛ وليكن).

دخلت عليه صبيحة اقتحمت وحدته، مرتدية فستانا ضيقا (من بين رهانات القمار)، بدت التصاقاته تنم عن نتوءات جسدها المتدلية، قصير الأكمام، متهتك الأطراف، وكانا زنديها كلاعب كمال أجسام، بوشم أخضر دُقَّ كنجمة سليمان؛ رفعت أطراف الفستان بقوة، ليبرز عن ساق بِدَوَالّ زرقاء، قالت بدلع: ما رأيك.؟

فستان جميل، وساق أجمل، وجسد كله أنوثة، وشعر مصفف بالمكواة بأحلى تقليعة. قالها: واستسلم للفراش، فركبت قارب جسده؛ وأخذت تجدف بالكراعين.

**

انبلج الصبح عن ضوء دافئ، وسرت الحياة بأوصال الأرض، رائحة الطين تشي بالمطر.. وتزكم الأنوف عبق البيوت الفقيرة ومداخن الحطب.

خرجت صبيحة من حجرة ليلة دافئة، بثوب مفتق الجوانب يشي بكتل اللحم المترهل، بشعرٍ يبدو كالمصعوق، ووجه كلوحة زيتية لرسام سريالي.. قذفت نفسها بالحمام حتى استنفذت كل لتر في السخان، وخرجت بروب البيت الوردي ذات البرنس.. عيناها شاخصتان بالحظيرة، وهي ترى الحمار وهو يدلي بلسانه الطويل اسرا البيت لخليف، كأنه يحدثه عن الجوع والجزع ونكران الجميل. وكان خليف بصمته الغالب يأكل الشّعير بنهم، فصاحت به: الشعير.!

أعرض عنها، فهو لم يرَ صبيحة سوى أتان مثقلة بالكسل.. بينما استفزها الحمار بنهيقه كأنما يشتكيه أسباب تجويعه.

اقتربت منه ناولته يدها لتوقفه، أبى بتردد، ما لبث حتى ضاع كفّه بكفها؛ سارت به إلى الحجرة الفارغة.

بين كان زوجها غاطاً في دفء الفراش الثقيل، جلبت خبزاً بارداً بالكاد مررته على النار، مع جبن محلي وبيض مقلي.. أكل خليف بهدوء، وبشبع بيّن، نتفة هنا ونتفة هناك، وكيف لا يكون كذلك فقد أكل من الشعير ما استثار الحمار.. تركته يعبث بالطعام، وقامت تعد الشاي، قدمته له. وجلست محتكة به كاد جسدها يسقط بجسده، وخوار أنفاسها تلهث: هل احببت. هكذا تمخضت الافكار كلها عن سؤال طائش.

ما كان خليف ليلتفت لها، أو يكترث لحركاتها، ولم تحظ باهتمامه، ولا تحرك أدنى انتباهه؛ فأنى لها أن تخوض معه اي نقاش او حوار.

لكنها لم تيأس، فكشفت عن ساق، وعلا التدرج الى الفخذين.. وهو ينظر لها كالمخصي غير مبالٍ، بهذا الجسد المتكتل كفرس النهر.

وأعربت عن سؤالها الأخير، بعد أن عجزت من استمالته: يقولون إنك مخبر.

صد بوجهه، وأغلق كل منافذ الأمل، فلا إجابة مقنعة ولا خيط دليل.

علت الشمس، وعاد خليف أسفل العربة يتفرس الوجوه.

بينما كان حازم يحلم بالمدينة الفاضلة، بين فاصلٍ من الكوابيس؛ وواصل وهمه الكبير بدفء كسول، تحت ثنايا لحاف طويل.

*

تهريـج أبله

وللبداية قصة أخرى...

أصرَّ حنون على ألا يبدأ الحكاية إلا بحضور خليف وموافقته.. ما كان خليف ليعترض حتى وأن كان يكره إثارة الموضوع – وعلى حد قوله – ما قيمة البداية والنهاية غامضة. فهي تجمع الكثير من الزمن الغابر، فلا صحاح في الأمة صح، ولا ناقل نصح، ولا أحد يتمنى ذكره؛ ولو على سبيل الحكايات العابرة.

وافق على مضض. وحكى حنون وليته لم يحك.!

هكذا كان رد خليف الصاعق بعد سماع ما يسميه بالتهريج الأهوج مثله مثل كل إعلام مدفوع الأجر كالتهريج الحكومي بقنواته الفضائية المستميتة والمستطردة ازدياداً المدفوعة الثمن والولاء.

إليكم القصة من طرف محايد. بدأ هكذا. فهل يبقى محايداً على الدوام.؟!

بين كنا أنا وأبي نتجاذب أطراف الحديث في طريق الموت، وكأنه كان يدرك أنه ميت، وهذه آخر ساعاته. ألزمني بوصية طويلة عريضة،

قال: (أنا أعرف أنك لا تحب زوجتك، ولا أقول لك عليك بحبها، بل اكتفى بالقول إن كل النساء سواء. وإذا شئت أن أنصحك كأب واجب الطاعة، أو على الأقل واجب الاحسان. أقول إياك والحب، وإن كان لا بد منه، فحب كما يحبون.. لا أحد يستحق الألم، لا الأهل، لا الوطن، لا دين السلاطين. لا أحد سينصفك، الكل سيأكل حقك، ويتفرج على بؤسك. فالأهل كما تعرف. والوطن لا يعرف الا الزعامات والمقامات. والبيادق أما همج رعاع، وأما ساع على سبيل رزق نجاة. والدين مسكين ما أكثر من يتاجر به وباسم الرب؛ وقليل هم الديانون).

قاطعه أحد الجالسين: أنت تكفر.

ضحك حنون بهدوئه المعتاد: ألم تعرف أن ناقل الكفر ليس بكافر.

– من قال هذا؟ إذا كان ناقل الخمر وحامله كافراً، كيف يكون ناقل الكفر مؤمناً.؟!

لم يلتفت حنون إليه وتابع حديثه:

أدركت عندها أن أبي فاقد الإحساس بكل شيء، فاقد الأمل؛ يائس إلى درجة الموت. فأحسست بسنوح الفرصة ومؤاتاتها، وكان أهم ما يدور في خلدي حكاية خليف المجنون وخاصة مسألة إيوائه.

أجابني: أنت انتهازي. (وكان يلفظ الزاي بلغة فخمة مغلوظة، تنم عن عرق بعيد).

قلت: إنه مثار للغط والقيل والقال.

فدخل أبي بحكاية وخرج بأخرى، بعيدة كل البعد عن صلب الموضوع.

عرفت أنه يحاول التملص، وألا يبوح بسره حتى الموت.. وعاد يسألني: أتعتقد أننا سننجو.

لم أستطع إجابته. وأخذ يتفحص وجهي، ويوأد همزات الشيطان وتلويحاته باليأس، فارتأيت أن أنفذ له من هاجس الوجع. قلت: الأعمار بيد الله.

اعترض بشدة، حتى أن كل من كان في السيارة سمع صراخه، معقّباً: الأعمار بيد البشر، بيد الطغاة، بيد الظلمة.

استوقفني كلامه، وربا حقدي أكثر فأكثر على الكل، بما فيها نفسي التي بين جنبي.

ثم ما أن هدأت ثورة غضبه، بعدما سرى الألم الممض في أوصاله، قال: ما الذي تُريد قوله.؟

قلت: أُمي.!

هز رأسه هزةً خفيفة كأنه يستفسر.

قلت: ما توصيني بها.

تأوه آهة طويلة مرتجفة أشعلت نار حسراته إضراماً، ووخزُ النَّدم يخزهُ من كل جانب.. وأطبق فمه وعيناه جامدتان. وكنت أشعر بأنه قتل أكثر من قتلة؛ لكن الرصاصة المسكينة كانت المتهمة الأولى.

**

قال: دعني من أمك وزوجتك فهما أفعى واحدة برأسين، فأنت ملدوغ لا محالة، أنصحك أن تأخذ جرعة مكثفة ضد السمية غير نافذة الصلاحية ودائمة التجديد؛ إذا كنت تريد مواصلة حياتك.

كلما أمعن النظر في كلماته تلك، أحس أن أمي فقدت نابيها، فما عدت أخاف لدغتها أو على الأقل اطمأننت من جانبها.. إلا زوجتي فلا أخاف أنيابها، بقدر ما أخشى لسانها، فكلما أعزم على قطعه، ثمة أمر غريب يدفعني للتراجع، مرة إشفاق، وتارة آملاً بأنها كبرت ووعت الحياة. فما يزال تهديدها قائماً؛ لكني واقف على رأسها بمطرقة الإسكات.

وتابع أبي: إذا حالفك الحظ بالنجاة، كن شاكراً للحياة، أنك فوق الأرض ترفل بالحركة تأكل منها لا تأكل منك.. فسرْ على نهج أبيك إذا شئت، لا ثقة عمياء، كل من حولك مصدر شك، مصدر قلق، مصدر بؤس.

لا أخفيكم أن علامات اليأس بدت تزداد وضوحاً، ألا تثق بأحد فهو يأس، ألا تحب أحداً فذا يأس اليأس؛ ألاَّ تؤمن بشيء إنها النهاية الصادمة والانعدام.

ربتُّ على كتفه، وكنت أتمنى أن احتضنه وأقول له (فداك العمر كله). وتلألأت دموعي التي لم أرها منذ زمن بعيد، وفكرت بلا سابق إخطار أن أعود به ونترك مشوار الشؤم هذا. وعزمت عليه، لكنه أبى ذلك، رفض أن يكون جبان في آخر ساعاته، مبررا ذلك بخلاف المنطق. (قلت في نفسي إنه منطق الموت).

قال: عشت عمري كله بجانب الجدار، أخاف حتى صوت الدفوف و(المراويس)، أكره صوت الديكة التي تحملني ليوم خوف جديد.. أمضيت خدمتي العسكرية مهزوماً مأزوماً، اضحك بوجه، وابكي بقلب، لم يكن الموت تحديداً ما أخاف، بل أخاف لأني أخاف. لا شيء شجعني على المضي ببسالة، أهاب المرتفعات، قيادة العجلات، خوض النقاشات؛ حتى هذه الساعة لا أحد يعرف ديناً لي ولا مذهباً.

يا بني لم يكن الخوف رزية أو كلمة معيبة، كان قدري بالحياة ان لا أعارض، أن أقبل بكل شيء.. حتى مشاكلكم الصغيرة منذ أيام المدرسة الابتدائية وما كان منها في الشارع أو البيت، كانت أمك هي من تتصدى لها، وهي من تدافع، وهي من تعاقب إذا شاءت أو تسامح. قد أكون رجل البيت، أباكم الاسمي، لكني أبقى رجلاً مع إيقاف التنفيذ.. من يعنى بالأسماء والأشكال، لا شيء في نظري ذات قيمة. ما كان التقسيم يوماً منصفاً أو عادلاً كما يجب أن يكون.. استكن بنظراته الخاملة لا ينشد غير السلامة.

فصحت بالسائق: توقف.. توقف.. أنزلني.

قررت هذه المرة أن أحمل جثته التي ما زالت على قيد التنفس والحركة، قبل أن أحمل جثته هامدة أو جثة بلا رأس.

**

السائق بعبارة صادحة: اذكروا الله.

بينما كان الرجل الأشيب يطمئنني أو بالأحرى يُطَمْئِن الكل، بقوله: اطمأنوا أنه تم تأمين الطريق بالكامل بطريقة آمنة بالشرطة الاتحادية، ووحدات من الجيش منتشرة على طول الطريق...

وأعاد ما قاله السائق: اذكروا الله.

لم ينبس أبي بحرف واحد، أظنه نسى الذكر، أو هو في شغل شاغل ولب شارد، يخوض حوارا آخر أو يناجي العالم الآخر بعوالمه المجهولة.. طلته بنظرة فاحصة، ابتسم بوجهي ابتسامة خافتة كأقصى ما فيه، نم عن طاقم أصفر عبث الشاي والدخان وتبغ المُعسل بتصميمه.

للوهلة الأولى أحسست أن أبي موقن أنها النهاية، فسألته: هل سنموت.؟ فكأنَّ الطّير أكل لسانه ولم يحر جواباً.

التفتَّ إلي الرجل الاشيب متدخلاً: من غريب الأسئلة سؤالك لميت هل سيموت.! أنا سأجيبك بالنيابة عنه وعن علماء الطبيعيات، لا أحد يؤكد أننا أحياء.

اعترضته، والدهشة علت ملامحي: ما يعني ذلك.؟ هذا الهيلمان كله، وهذا الضجيج كله، والتاريخ والكتب والحساب والعقاب. (وإن كنت في قرارة نفسي لا أؤمن بأشياء كثيرة، لكنني بالتأكيد مؤمن بالحياة المادية كما أحس وأدرك).

رويدك.. رويدك. هكذا قاطعني واستطرد موضحاً: "إنَّ الواقع مجرّدُ وهمٍ وإن كان مستمراً" هذا ما صرح به أينشتاين، وتبعه كثير.

لم أستوضح شيئا من قوله، وإن استوقفني هذا الاسم اللامع لعالم كبير، أن كفر كفر العالم معه، وان آمن فقد مدّ جسور النور في عالم لم يشأ التفكير الا بالملموس والمُدرك.

وعلقت بحيرتي، فهذا الدبيب المخيف، وهذه الضوضاء التي تشعل الدنيا؛ كلها وهم.

ضحكت في سري، عندما أسمع أن الكون محض وهم. وأنا الإمعة حقيقة، وحقيقة تافهة، تعترض نواميس الكون. وقد أكون مجرد حلم أو نزوة لآلهة كسالى – أبوين متوحشين – قذفوا بنا من مكان سحيق.

لا أدري، هكذا أنا منذ عرفت الحياة بطعمها المر ولونها القاتم وحكمها الأهوج، أُهرّج، واهرف بما اعرف وما لا أعرف، أشاطر (اللا أدرية) أفكارهم من حيث لا أعلم. المهم أني لا أتورع عن قول أي شيء، أي شيء؛ بحكم أن كل الأشياء لا معنى لها عندي.

لا أخفيكم أن أبي يعلم الكثير عني، كل خفاياي وأسراري، حتى أنه غير مهتم قط بما يدور خارج المنزل، حتى المنزل كان قد فوّض أمي تفويضاً مطلقاً لا يقبل التقويض.

كان أبي صاحب علامة تجارية أو فكرية خاصة به، قلما أسمع بها، أو اقرأ عنها في كتاب، رغم قراءتي المتواضعة، فهو دائما ما يتبنى فكرة: إن الحياة للحياة.

أنا الوهم الذي يأكل ويشرب ويتغوط.. أنا الوهم الذي يرى خليف يجرف فضلات الحمار ويرميها بوجه حازم وزوجه.. وفي داخله ووجدانه أن الحمار أشرف مكانة منهما.. أنا الوهم الذي أرى الأشياء بوضوح تام، لكني أعمى لا أرى إلا الأصوات الطائشة القصية النائية.. أنا الوهم لكوني كل شيء، ولا شيء في آن واحد.

وتطول حكاية الموت، ويقصر العمر؛ ويطوي الصمتُ بؤس الكلام.

**

دب شيء من الأمل في العروق السوداء، وثمة حرارة بدت تتدفق بجسد أبي، وراح يربت على فخذي، وهو يقول لي بعينيه الغائرتين المستسلمتين: اطمأن.

لم أدرك سبب الهدوء المفاجئ، وهذا الاطمئنان الذي يتحدث عنه، ربما جاء متحفزاً لانتشار قوات أمنية بحماية الطريق العام. كما ادعى ذلك الرجل الأشيب الذي بدا مطمئناً جداً.

فتمنيت لو أنني أملك نصف جرأته، أو ربع ذلك، بل لو عشر هدوئه؛ لأنعمت بالراحة. على الرغم من أن وجهه ما زال واجما وثمة همس صراع بينه وبين ابنه، لا يجانب الأرقام والحسابات المشفرة.

الطريف أن أبي الذي كان أشبه بالميت، عاد من موته ليواسيني، وهو يطبطب على فخذي، قال: أيسرك أن تعرف حكاية خليف.!

أدركت عندها لعبة العزاء وتزجية الوقت، فرميت برأسي على كتفه، وقلت: لم لا، ما زالت الحكاية تلتهم الوقت وتبدد الخوف.

قال وكأنه بعجالة من أمره: كان ظهور خليف في الحي ظهوراً غريباً ومفاجئاً، وأنت تدرك وقت مجيئه.. لم تمر سوى أيام قلائل وقد تعرض لوعكة صحية كادت تميته بسبب البرد والمطر الذي أصابه ليلتها من جانب، وعدم وجود مأوى يلجأ إليه من جانب آخر. فقد ظل يتنقل ما بين حظيرة الحمار وبين أسفل العربة، وفي صباح ذلك اليوم المشؤوم (يوم المشكلة.! الذي سطا بها هودي الخضار على صبيحة) أظنك تذكره.؟

اومأت له تأييداً.

فتابع الكلام: ما إن انتصف الليل، وإذا بطارق لم ينفك من قرع الباب بقوة، حتى أنَّ أمك يئست من دفعي لمعرفة الطارق.. كنت خائفاً أنْ تكون من تبعات المشكلة إياها، وأنَّ شرطة مكافحة الإجرام ستزج بي في السجن، حتى تستوفي التحقيق بالكامل.. لم يتمهل الطارق دقيقة وهو

مستمر بالقرع.. تلفعت أمك طرحتها الخضراء وعزمت الخروج، فأثنيتها عن ذلك. ونهضت للخروج وفي بالي ان ثمة إخبارية، إما تكون على المشكلة إياها، أو تكون عن أعمال أمك التي بدت شائعة، ومنافية للعرف والدين كما اسمعني بعض الجيران ذلك؛ وكان ثمة من يغمزنا ويلمزنا بالكلام السيء.

فتحت الباب، وإذا انا برجل دين بعمامة سوداء ووجه نوراني جميل، لم يسبق ان رأيته في حياتي كلها، باسمُ الوجه سمح المحيا، بلحية سوداء مشذبة مخضبة بدهان المسك.. كان مصباح البيت الخارجي يعكس ضوءه الخافت عليه، فيبدو انه مضيء بذاته.. شغلني نوره عن سؤاله، رغم انتصابه السامق، وهيبته الوقورة، كان كثير التلفت والحذر، ما بدا يربكني.. فأوجسَ خيفتي، قال: لا عليك، أنا أتلفت لحصاني الابيض، هل تراه.؟

حدقت بالمدى المظلم، كانت العتمة قد القت بستارها على كل شيء، قلت: كأني أراه. ولا أدري حقيقة ان كنت رأيته، أو لم أره.!

قال بثقة عالية: أخشى ان قلت رأيته، لكذبتك، فلا يراه إلا الأولياء.

صمت وهو يتحسس مدى تقبل الامر، وعطف: أنت تجهل حجم الظلام الذي يحدق فيك.!

قلت، برجاء وتمنٍّ: نورني يا مولانا.

(وفي نفسي خوف شديد ان يكلفني بقتل زوجتي؛ كحدٍّ لأعمال السحر)

لكنه شق خمار الصمت، واستطرد قائلاً: أما ترى هذا المجنون يموت بين جنبكم، وأنتم تنظرون.

علوت سلمة عتبة البيت، وإذا بي أطل على المجنون، وهو متقرفص تحت العربة، بدثار رمادي ثخين، وهو يسعل بشدة ويرتجف، قال: أترى وتسمع رفيف أجنحة الموت، دون ان تحرك ساكناً.

للوهلة الاولى أدركت ان هذا الرجل ما هو إلا واحدٌ من رسل الموت، وبدت ترتعد فرائصي، والخوف يؤجج كياني الهش.. وهو يحملق بوجهي. قلت في خلدي: (جاءك الموت). احسست بأن خاطف الارواح هذا دائما ما يكون باسماً، وهو المخول الوحيد بالعقوبة، فيفرض الموت بشكل يناسب حجم الجرم.. ربتَّ على كتفي، قال والابتسامة لم تفارق محياه: أتريد تكفير الذنوب.؟

الحقيقة أنه لا ذنب لي، إلا أن رضيت لأمي أن تبولني على فراشها، وتغذيني ببصاق صدرها الأسود، لأدرك أن ثمة جيفة تمتد لسلالة من الجيف والنتن أكونه أنا؛ لكن هل اقول ذلك لملك الموت.!

قال: أنت تائه.

ضحكت عندما تأكدت في قرارة نفسي، إنَّ آلهة الموت لا تحاور، تنفذ اقصى العقوبات؛ وتتكل.

دس يده في جيبه، وأخرج مبلغاً من الدولارات، قال: هاك ألفي دولار. واسكنه أحد الدكاكين؛ ألم تخل دكان هودي الزاني.؟!

استغربت.! قال: لا تستغرب. تكفّله بكل شيء، نتكفلك.

قاطعته: هودي.؟

حدجني بنظرة ساخرة، واستطرد: اعتن به، بملبسه، بمأكله، وعلاجه.

كان المبلغ كبيرا لدرجة أن أسال لعابي، فهو مبلغ قد يرمم كل حطامي وقتذاك. بإمكاني أن أشتري به بيتا وسيارة، أو أيّهما شئت.. اخذت المبلغ دون تفكير، ولِمَ أفكر.؟ وتمنيت لو أن أتكفل ألف مجنون وقتها.

خاصة أنّ الفرص قلما تأتي بالدولارات.

قال: سنزورك مرة أخرى، أو بالأحرى مرات.

رحبت بداخلي بهذا المجيء وعساه يكون كل يوم، قلت بتطفل بهيج: ما اسمه.؟

نظر بوجهي متفحصا مغزى السؤال، فالمجنون وحده اسم وماركة مسجلة.. لكنه تعاطف مع فضولي، قال: اسمه (خلف). توقف، ثم استطرد: سيخلف عليك فقدَ ابنك (خماس) وان كنت اعلم ان علاقتك

بابنك كانت ضعيفة وواهية وبلا وفاق وانسجام، الا انني متأكد أن خلفاً سيكون العوض المناسب، وقد يحظى بقبول زوجتك المكلومة.

وتراجع القهقري، وركب جواده الابيض الذي لم اره لكني متأكد أن في جيبي ألفا دولار؛ قد احكمت فيهما قبضتي.

ومنذ ذلك اليوم، وانا اناديه خليف تصغير محبة ودلال.

فوثب خليف من بين الحضور قافزاً، وهو ينفض ملابسه المتربة، متأهباً الخروج.

فصاح به حنون: أين.؟

خليف المجنون بعجالة: ابحث عن الجواد الابيض.

*

دمُّ اللحظةِ الباردة

القصة من مصدر مجنون...

الجواد الأبيض... الجواد الأبيض... وما وراء الشمس لم يكن أبيضاً.! هكذا سبر الشارع طولاً بعرض، وكأنه يمتطي فرساً، ولسانه لا ينفك من ترديد: الجواد الأبيض.. الجواد الأبيض.

انشده حنون وهو يلحظ شيئا لم يسبق أن رآه من خليف حتى في أوج جنونه... ما كان من شيء يستحثه بهذا الشكل ويحفزه على الوثب من مكان لآخر، فهو لطالما بدا للجميع أنه أعقل المجانين، إن لم يكن اعقل العقلاء؛ أو على أقل تقدير في مصاف المتعقلين.

اعترض حنون قفزاته وأوقفه، وسحبه من كمِّ قميصه الطويل، وأدخله حجرته، مستفهماً: ما بك. وما قصة الجواد الابيض.؟

استلقى خليف على سريره، وسبل يديه كالمسجى على المغتسل، وصمت وكأنه كتم النفس.. بينما كان حنون واقفاً، جلس على نضد صغير، وبدا يتأمل متى تدب الحياة في لسانه وينطق.. وكانت ثمة ذبابة م تنفك من معاكسته وهي تطنُّ في أذنه، وتحتفي بشعفته، وتحرش بفمه

المفتوح لغواً ونهما. وهو يحدق بهذه المتحرشة دون أن يألَ جهداً في نشها. على الرغم من أزيز المروحة السقفية وهي تنود بنفسها في شدة القيظ، كانت الذبابة مشاكسة وقحة، تحلق بطيش ضد التيار؛ وتشغي المكان بالطنين.

استطال حنون صمته، ما دعاه ليحزم رأيه ويعود لبيته.. وما أن خطى اولى خطواته خارج الباب. سمع صوته، وهو يردد: الجواد الابيض.. الجواد الأبيض، وما وراء الشمس لم يكن سوى ظلام.

تنبه حنون لهذه الكلمة تحديدا، ورجع مسرعا بفم ملأى بالأسئلة أكثر من الأسنان.. وبسكون تام جلس على النضد الصغير، وأذناه مشرعتان لاستقبال كل ما يمكن أن يبوح به خليف، حقيقة كانت أم مجرد حكاية من نسج الخيال.. فقد اعتاد على الكثير من حكاياته ولغوه، وكلما يعترضه او يدقق معه. كان جواب خليف قاطعا: المجانين لا يكذبون.

بيد أنَّ جواب حنون كان أكثر وداعة وحكمة: لا أريد أن أُحرجك، الكلُّ يكذب العلم والحلم، والسيف والقرطاس والقلم.

ومضى خليف يضرب ناصيته براحته عسى أن يتذكر. ما لبث ان توقف متسائلاً مع نفسه: (أين الخيل، ثمة خيل في هذا البيت.؟! مَن أخفى الجواد الأبيض من.؟ وفي أي بيت.!).؟

وكانت شاشة الذكريات تمر بمخيلته بالأسود والأبيض والتشويش والوشوشة.

**

كان خليف يعد بأصابعه الخمسة بأرقام غير مرتبة وحروف مقطعة.

حاول حنون استراق السمع، لكنَّ الصوت كان أقرب للهمس منه إلى الكلام. فألتفت إليه قائلاً: اسمعني.

بقي خليف مستلقياً على فراشه، ساهماً في ذكرياته، لم يشأ أن يتزحزح من مكانه، وغير مهتم البتة بمن حوله، ولا يرى ضرورة بتعقب رسالته؛ وصلت أم ضربت بعرض الجدار.!

وبدا الهمس يعلو ويتضح: أية ملائكة مجنونة تنزل من السماء، أو من أي مكان، لتخطف نفساً مسكينة.. إنها شياطين الأرض المتمثلة بسلطان مختلف عليه، وحزب لا تطارحه الغرام، ورجل دين تماحكه، وسافل تهاتره، وسارق تطمع فيه، وساحر تجادله، وسافل تداهنه، وطبيب جشع يعدُّ عليك الأمراض، وورثة حانقين خاصة إذا أمد الله بعمرك.. كلها أسباب موت حقيقي؛ فما جدوى أن تنزل أو تعرج الملائكة بنفسك النتنة.

صمت بعد أن باغتته الذبابة بمناورة خطيرة بالولوج في حلقه، قال: وهذه منهم – مشيراً للذبابة – التي ما زالت تعاكسه. واستطرد: في لحظة فارقة بدأ صاحب المنشار الطويل المترجل من جواد أبيض، يسلخ النفس

من قدمي، وحامل المقصات يلوّح لي بشفراته اللامعة، وهو يمسح ناصية حصانه بسيف فولاذي ويحرض بالاستعجال. الأمر نافذ هكذا قال. هي لحظات تقطر دماً في زمن اللا لحظة، ومضة برق، لصفة خاطفة.. وإذا الأوامر تغيرت، وبانسحاب تكتيكي تركوا إحدى قدمي بلا دبيب.. وبدا واحد يومئ للآخر: أصلح ما سلخت، أعد عليه قوة الحياة؛ لم يلتفت إليه.. صحت عليه بلا صوت، صرخت في عدم: قدمي، رجلي.

كأنه أحس بي، رجع، ومن غير نفس، ولا طيب خاطر؛ شد شريان بآخر واختفى.

أحسست ثمة ميكانيكا أدارت عجلة الحياة في داخلي، تنبهت وأنا أشد شوقا إلى الماء من كل شيء آخر، وحتى لا اكون كاذباً، وأنا في عهد حياة جديد.! أكثر ما اشتقت له بعد الماء أو حتى قبله الجنس، خاصةً وأنا أذكر تلك التي كانت تهمس بأذني بشهوة وشبق، اذكرها جيدا، شكلها لا يفارق مخيلتي، لكني لا أذكر ما قالت، وما عساها تقول أنا أعرف هذه الأشكال، هي تفعل أكثر مما تقول.. كانت صورتها جميلة إلى درجة إلى درجة أنها كانت بلا صورة، جميلة لا تحتاج معها إلى هوية تعريفية، جمالها يفصح عنها، يعرض عن مكنونها، حاولت أن أتذكر؛ تذكرت أنني لا أتذكر.!

المشكلة أنني ما زلت أشم عطرها، الغرفة ملأى بالشذا والطيب، وجه من ندى الأفلاك وتراب السماء، فاكهة من نوع ما، من شجرة ما، من

وراء ما، وأعجب أن تكون هي (ما) النكرة؛ وصبيحة وهنية من (من) المعرفة.!

تناولت كأس الماء الكبيرة التي كانت على طاولة صغيرة بجوار سريري، شربته دفعة واحدة دون أن أتنفس، وكان بي شهية أن ابتلع الزجاج المائي اللون.

استفاق خليف من هجعة، هذر بها ما لم يحكه طيلة مقامه في عالمه المخبوء بين طوايا الصمت.

**

النوايا الصالحة لا تصلح العمل الفاسد...

كل المراعاة الأبوية التي حظيت بها كانت مدفوعة الثمن، وَمِمَّنْ.؟ شبح لا أحد يعرف نيته ودوافعه.. حتى المرأة التي كنت أعتقدها أكثر من أم، التي تعاملت مع مجنون بكل لباقة ولياقة، وحظيتُ منها بالعناية ما لا مزيد عليه.. تخطيت بفضلها كل مراحل الخوف، واجتزت عوالم الضياع، واستكنت هادئاً وديعاً بين يديها وفي أحضانها، كانت ممثلة بارعة، أجادت الدور بشكل مميّز، هكذا يعمل الدولار؛ في زمن كان فيه الدولار الحكم والقرار.

قاطعه حنون: أنت تسيء الظن.

ضحك خليف بأنفه ساخرا: الظن هو المبنى الأساس في حياتنا، لا شيء في حياتنا حقيقة، وهمٌ يجر وهما.. لو أنّ دواليب الحياة أيقنت لتوقفت بالحال. لا شيء بالمطلق يسمى حقيقة شاملة، أو يعتد باليقين. النوايا قائمة على المجهول، صالحة بالباطن فاسدة في الواقع.

لم يستسغ حنون هذه النغمة الشكية، لا من باب الدفاع عن إرث أبيه بالرعاية الكاملة لخليف، ولا بالذود عن أمه التي تبنته أفضل ما يكون.. لكن حنون أراد الأمر أن يكون كما هو كائن دون منغصات عيش، خاصة وأن لخليف مكانة كبيرة في نفسه فهو عنده كالأخ الأكبر والناصح الأمين. قال: دعنا من الماضي، هل تعرف من تكون.؟

ضحك هذه المرة بفجاجة، بضحكة غريبة قلّما سمعها أحد: أنا الماضي.

حنون متلكئاً: لم أعن...

قاطعه خليف: لا تختبر جنوني. لا يليق بك دور الدفاع عن أبويك، فأنا أعرف بمكة وشعابها.

ضحك حنون وهو يعلم سلفاً، أنّ كل أسراره بما فيها أسرار البيت، كان قد بثها على مسامع صاحبه، غير أن خليف كان أكثر بداهة، فهو يقرأ ما بين السطور.

استطرد خليف القول: تراودني بعض الذكريات أو بالأحرى الكثير منها، لكنها مشوشة إلى حد ما، فأنسى بعضها وأتجاهل أخرى، وفي كلا الحالتين لا شيء يستحق الذكر، أو التعويل عليه والاهتمام به.

مثل ماذا.؟ سارعه حنون بالسؤال.

مثل إنني لا شيء، لا شيء على الإطلاق، نبتة تمرغت بالوحل لتظهر على وجه الأرض تدوسها أقدام المارة، على الرغم من أن الشمس تحرسها بقواها العظمى.. حتى عندما كبرت، كنت نبتة هجينة لا بذر لها ولا طلع.

حنون متململاً: كمْ أكره أن تزوغ وتتوهني.

– أنا تائه بالأصل، إنسان بلا خارطة، وبلا جذور.. هدفي أن أكون بلا هدف؛ هل تصدق ذلك.؟! هكذا يُريدني...

هبَّ حنون من مكانه يصرخ به: مَن.؟ من يريد لك ذلك.؟

تنبه خليف من غفلةٍ كان ساهماً بها، وهو يحدق بأركان الحجرة التي بدت تتقلص بحدقتيه. وعني ألا يجابه حنوناً حتى بنظرات عابرة؛ رغم أن صورتهِ قائمة في كلِّ مخيلته.

**

القدر من يريدني ان أكون مجرد لحظة باردة تعبق دماً في مشهد غامض...

ما نوع القدر. هكذا داهمه حنون.

لا أعرف شكله، نوعه، حجمه، سوى أنه تجسّد بهيئة امرأة، تبدو شابّة جميلة، أراها طالبة جامعية، نسير معاً، نضحك معاً، ربما زميلتي، طالبتي، حبيبتي؛ لا أدري... لكني أحس مدى تأثير جمالها، حسنها الصارخ المستفز للقلب، المهيج للمشاعر، المثير للرغبة؛ لا زلت أشعر بجاذبيتها.. نعم تذكرت – وهو يحك بفروة رأسه: بلاهتي بلادتي لا أفضل منها متاحاً للذكرى؛ مشكلتي أني لا أعرف.

صمت، شرب الماء، غص بالكلام: مشكلتي أني لا أعرف اللف والدوران، مستقيم وجاد جداً، لا أظنّها من العيوب المشينة، لكن الصراحة قد تبدو ضعفاً احياناً وعيباً وخللاً.! أما عن قلة الصبر فلا أبشع من الجزع فهو آفة الفشل، والاستعجال بالبت بالقرارات المصيرية فاحشة – هكذا كنت أدعي المثالية – أين لا أدري.! ما حملني ذلك على مصارحتها، مصارحتها بين قوسين لا مطارحتها الغرام، قلت لها: أحبك. (يا ويلي على ما قلت وما فعلت).؟! قامت الدنيا ولم تقعد، انقلب الكون رأساً على عقب. لا أعرف ما الذي أثارها حدّ الجنون. هي كلمة قلتها تلخصت بالحب لا الكره، لم أسمع في كل المعتقدات من يجرّم الحب.! لا أدري متى أصبح الحبُّ جريمة نكراء.! إلا في وقت فرض قوانين الطوارئ.! خاصة وأن أباها رجل قانون – على ما أظن – فهي أخبر بهذه الاصطلاحات، بالتأكيد ملمة بمفردات الجريمة.. أو ربما تظنها

مفردة شائنة.! فكنت دائماً ما اسمع أبي يسأل أمي الحب، فيختليان وتنشب الحرب؛ وعطر الصراخ يملأ البيت، ورشقات موسيقى تصخب الجو.!

الا ان كانت أمها ضليعة باللغة، فهي عرف اعرف بمن يجرُّ من أذنه ومن يُنصب، وتنصبَّ عليه مصائب الدنيا.! بلى أنها من عائلة متعلمة، وعلى ما يبدو مترفة إلى درجة أن الحب عندهم لا قيمة له ولا تقدير.. ربما اساءت الفهم، واعتقدت أني طلبتها لعلاقة حميمية، أو إنشاء قصة سرير، أو لقاء لا تراه السماء ولم تشمه الأنوف.

كان حرياً بها الاعتذار بألف سبب وسبب، كأن تقول مرتبطة، مخطوبة، صغيرة على الزواج، منشغلة بالدراسة، مستقبلي أهم؛ كلها أعذار مقبولة لكنها للأسف فتاة جبارة. أشارت إلى الشمس؛ فصرت وراءها.

أنا أعرف أن خطيئتي كبيرة، وكبيرة جداً، لكن ما هي؛ لا أدري.!

قعد على فراشه المبلل، وهو يضحك ساخراً من نفسه: (من الغباء جداً أن تستمع إلى مجنون يتحدّث بصلافة وطلاقة ليبرئ ساحته دون أن تقاطعه أو تعرض عنه.. بل من الجهل أن تصدق أنها قصة حقيقية، وغير مفتعلة، ما لم تجد دليلاً على صحتها، ربما كانت مجرد كلام، نفثات حالم، شقشقة هدرت لسبب لم يألفه سوى المجنون).!

ما استثار فضول حنون ونجّم متسائلاً: إذا كانت قصة حقيقية فما اسمها، وشكلها، وأين حدثت هذه الحكاية.؟

وعاد خليف يستحثّ الذاكرة متحرياً خيوط الحكاية، لينتهي لنتيجة مفادها أن كل ما قاله لم يكن بالجديد؛ ولا زالت مخزونة في اللاوعي. وإن هناك الكثير والكثير جدا والأهم؛ ما زال غامضاً ومعتما.. وعاد يتساءل بسذاجة: (هل يمكن أن تتسبب المرأة بكل هذا الجنون).؟! نسى أن كل المجانين كانوا ضحايا النساء والحكومات.

*

على هامش الوجود...

ما أغرب أن تُسمى وجودي، وأنت لا تدري إذا كنت موجوداً أو معدوماً، أو على الهامش بين بين. هكذا شرع حنون بالحديث...

بين كان خليف يمسد لحيته الكثة بأصابعه، وهو يشاهد حركة الصرصور بين الفرِّ والكرِّ، من المراحيض إلى الصالة الصغيرة، يسير ببطء ويتوقف يستطلع المكان كثيراً، وعند أي حركة غريبة، يلوذ سريعاً عند أقرب مخبأ يواري به ظله.

حنون بلهجة عتب: أنت تهمل نفسك يوماً بعد يوم، الصراصير في كل مكان، شعرك الكثّ، ملابسك المتسخة التي ترفض غسلها. قل ما بك.؟ أنا أخوك.

أجابه ببرود: لأن أكون مجنوناً، لا بدّ من إطلاق لحيتي وشعري.. المجنون مثله مثل هذا الصرصور الخائف الكسول الذي استلذ ان يعيش نصف حياة ونصف نور، يغمس فاه في الخراء، بينما هو يلمح جهاد النحل في الحب، ودبيب النمل في العمل المنظم. يا ليت بني البشر يتعلم منهما المؤازرة والتكاتف والبناء.!

ماذا. هكذا أجابه حنون. وزاد: حكمة بالغة

خليف ساكناً كأنه ارتكب خطأ ما، أو أفصح عن سر خفي.! فأن ما قاله لم يصدر عن مجنون؛ وأن قيل خذوا الحكمة من افواه المجانين.

تغاضى حنون وإن كان في نفسه ما يكنه المُستغَفل. وفي قرارة نفسه، يقول: (أنت لم تستغفلني سيدي، بل طيبتي من فعلت). ورأى في ذلك حافزاً لإقحام خليف بكل ما يريد، بعدما بدا أمره مريباً للقاصي والداني. فسأله: جئت هنا وكنت أخرسا، فما الذي جعلك تعدل عن هذا الدور.؟

تماهى خليف بالصمت والإعراض.

لكنَّ حنون لم يمهله طويلاً، أعاد السؤال بطريقة أخرى: فجأة صرت خطيباً ومفوّهاً بعد صمت مشوب بالشك.

يدرك خليف ما تجر إليه الأسئلة، لكنه وجد نفسه مجبراً أمام الشكوك، والأكثر أمام هفواته، قال: لم أكن أخرسا، وما كنت خطيبا مفوها؛ الناس تقول ما يحلو لها.

– لكنك بدوت للجميع وقتذاك لا تتكلم إلا بالإشارة.

شخر بأنفه، قائلاً: وما تريدني أن أقول وأتكلم عن صبيحة مثلاً وإغرائها، وأنها عرضت نفسها عليّ أكثر من مرة.. وكيف كان هودي الخضار يستغل خروج حازم ليمتطيها كحمار (القائلة).. عم أتكلم عن

زوجتك التي كانت تكره رائحتي، حتى أن أكثر المرات تكسر الصحون التي أكل بها، وهي تقول: ولغ الكلب.

صمت حنون برهة، لكن إصراره لم ينته عند هذه التبريرات الساذجة، قال: هذا ليس مبررا، بالتالي أنت متهم، أو متورط بالعمل للأجهزة الأمنية؛ بمعنى أنت مخبر.

ضحك خليف قائلاً: أنت تتحدث عن زمن غابر، ولى وولت معه كله إرهاصاته، نحن أبناء اليوم، أبناء الألفية الثانية.

ضحك حنون موضحاً: نحن الآن بالألفية الثانية واثني عشر عاما.

حكّ خليف شاربه، متسائلاً: أين هم الأمن.؟ ألم أكن أحد مخبريهم؛ إلا إذا كنت مخبراً بالمجان.

وبدا ساهماً يفكر: (هل حقاً أنا موجود، مثلي مثل ذلك الوجودي، الذي تحدّث عنه حنون للتو. قد أكون موجوداً كشاخص يشير لمنطقة حكومية محظورة؛ في بلاد يحظر تمثيل الجنون).!

**

مَا حكاية اللصوص الذين سرقوا أوراقك.؟

حكاية قديمة أثارها حنون، لمعرفة حقيقتها.

اللصوص الكلمة الوحيدة التي لا أستغربها أبدا، فماذا تخلف الحروب غير اللصوص والمعاقين والمتسولين. المتسولون هم أكثر من يحترف

المهنة فهم يمثلون الدورين معا بجدارة وكفاءة عالية.. الشعب لم يكن يوماً لصاً لولا (امريكا).! كنا لصوصاً لا يشق لنا غبار، نسرق باسم الفتوحات، ونعلم بالمقابل الدين والاخلاق.. كبرنا ونضجنا وتركنا لهم العمارة والحمامات واطنان من كتب التاريخ والفقه.! كان الوحش فينا يعشق النساء، والجلاد منا يجمع الفيء، والسلطان وحده من يخزن المال والوعاظ والجواري والقيان؛ والشعراء يكرعون باسم الأمير الخمر والدنانير.

واستطرد يقص الحكاية من (طق طق) إلى السلام عليكم:

في تلك الليلة الشتوية الحالكة الظلام، المصحوبة بالبرد والمطر، اقتحم لص حجرتي البسيطة، ومن دون مقدمات انقض اللص كالذئب عليّ. هل تعلم ان الذئب بالأصل كان كلباً أسقطوا عنه هوية الوفاء والاصالة بسبب وحشيته وحقده.! الذئب كالحكومات البائسة المنبوذة التي لا تمنحك فرصة الاعتذار، وكتابة الوصية. قال: أعطني كل ما تملك.

ضحكت لأول مرة اضحك من كل قلبي.. فهزّني اللص من جذعي وكتفي قال: تضحك سأقتلك الليلة

استشطت من الضحك، حتى كدت أختنق.. وجّه مصباحه اليدوي في وجهي، حملق طويلاً بي، جرَّ خطاه بمهلٍ، وأقفل راجعاً. صحت به: مهلا اجلس.

طالعني باستغراب، قلت: أتريد أن تعرف ما أملك. سأقرَّ لك، وإن شئت تدوين أقوالي؛ فافعل.. أنا أملك علبة سجائر، مع أني لا أدخن؛ أتظاهر أحياناً.! لكني دائما ما استخدمها للكي، أنظر إلى جسمي وسمته بالنار كله، مخافة أن يضيع مني.! أنا لا أثق بجسدي، غبي مثلي هو الآخر، طالما تنصل عن واقعه. وأملك لحافاً ومفرشاً إسفنجي ووسادة، اللحاف أثقل مني وزناً، رطباً وعطناً دائما ما يبرد، وادفيه بالغازات الحميدة. الغازات.! كمْ مرة قال لي حنون صاحبي: الحجرة تعطن بالفساء.. انفي ذلك بالمطلق، وأؤكد له أنه الغاز المصاحب للنفط.!

طرحتي الإسفنجية التي بدت بالتآكل، لطالما عرضتها الخالة أم حنون للشمس. ها، هي لم تكن خالتي ولا أعرفها، وعندما عرفتها رأيت فيها كل ما أراه في أمي، ربما أحسن بكثير. أمي امرأة جزوعة، لم تصبر على الحياة طويلا، اختارت الموت؛ فبئس الاختيار.!

هذه المرأة التي اسميها خالتي هي أم حنون، هل تعرف إنها المرأة التي تشبه أمي، لكن أمي ميتة، وهي حيّة.! افهم يا ولد حية ليست أفعى؛ وليست بالضرورة أن تكون على قيد الحياة.! فكلنا موتى، ولكن أجسادنا المغرورة ما زالت بزهوها تمارس طقوس الحياة.

أين ذهبتُ... ها، طرحتي الإسفنجية المتآكلة من الشمس، أقول لخالتي: ما بالُ فراشي والشمس، أهو يعبد الشمس.؟! تقول لي: أطهره من البول والشخيخ، فهو نجس ورائحته مقززة.

وانفي ذلك نفياً قاطعا، وأقسم لها، فأنا لا أكذب، مجنون واكذب؛ فما بقي للعقلاء إذاً.! وهل أنا مجنون لأتغوط في مكان آكل فيه وأنام. الخونة وحدهم من يفعلون ذلك، يسرقون بيوتهم، وبلدانهم، يتغوطون في أماكن رزقهم، يبولون على الشمس؛ أناس اختاروا لمآرب اخرى.

ألتفتُّ للص كان قد اختفى كالمارد.. كان في ودي أن أحدثه عن وسادتي: صدقوني في وسادتي كنز، كنز بالورد البهيج، مطرزة بدعاء جميل (تصبح على خير). في وقت لا أحد يدعو لك، وما أكثر من يدعو عليك.!

وأعظم المشكلة ألا تعلم مَن منّا أمسى على خير، حتى يصبح عليه؛ في بلدة يُسرق بها حتى المجنون.

**

بدأهُ حنّون بالاتهام: ما يثار أن الصحف وخاصة الكلمات المتقاطعة، هي رسائل مشفرة تتواصل بها مع المسؤولين.

– ربما الشغف المحموم، أو بالأحرى المذموم بالكلمات المتقاطعة هو من ورطني ب– (سمية).! نعم تذكرت اسمها، سمية، كانت تنعتني الأذكى على الإطلاق.. لكن في قرارة نفسي، ما كنت أشك بأني الأغبى والأعمى الذي لا يرى إلا ما تحت قدميه.. كانت فتاة جبّارة، تهمس من بين أسنانها بشفتين لاهثتين، تجذب الذئب البشري، وتشعل كل مكامن الذنب فيه. ولأني كنت الأغبى عشقاً تمرغت بالوحل آخر بهدلة، من

السجن إلى السجن بجرمين: الأول أني قلت كلمة أحبك عابرة للطائفية خارجة على المناطقية والطبقية. والثاني أني أجيدُ حل الكلمات المتقاطعة، ما دعا إلى تجنيدي جاسوساً أو مخبراً على حيِّكم المشبوه، حي منعوتة وصبيحة.

أحسّ حنون بمدى سخرية خليف وتهكمه، فقد بلغ مبلغه من التجهيل والتحقير، فزاد ضيقاً وتبرماً، ما كان ليتوقع أن تنقلب الموازين بهذا الشكل الفادح الفاضح، ويكون محط سخرية الجميع، الذي سمع والذي سيسمع في قابل الأيام. فلا شيء بهذا الحي مخفي ولا شيء سيخفى في حي القيل والقال؛ الذي جعل من المجنون رمزاً بطوليا واضحوكة لجيل كامل عاش الاستغفال والاستحمار بكل تفاصيلهما.

وعاد خليف مستهزئاً: أيُّ غبيٍّ بثّ فكرة أن تكون الكلمات المتقاطعة رسائل مشفرة، تجمع نخبة من خبراء التشفير على حلها والتفاعل معها وكأننا نشاهد أفلام المخابرات العالمية.. أي عاقل يصدق هذا؛ أنا نفسي المجنون لا أصدق ذلك.

خرج حنون بخفي حنين وفي قلبه يضطرم سعار السخرية، وبدا يترنح بما أثملته أفكار لا قيمة لها سوى المغالاة والجهل في أمة روضت على الخوف والاذعان.

بينما قام خليف وأخرج صحيفة اليوم، لكنه لم يجد صفحة المنوّعات والتسالي، فاستغرب وجنَّ جنونه، وهو يصيح: من سرق الكلمات

المتقاطعة، الاسم المفقود، مجموعة الأبراج.. أي لص سرق الرسائل المشفرة، أي لص سرق اسرار أمن والحكومة وخطتها الخمسية؛ أيُّ لصٍ شُجاع هذا.!

فطلَّ عليه باقر بطلعته الهادئة الوديعة، وأعطاه لفافة من جريدةٍ ملأى بكرات الفلافل، أكل الدهن فيها رسوم الجداول والأحاجي.. التقم خليف كرات الفلافل بسرعته المعهودة؛ ورمى الجريدة للصراصير.

*

يوم جديد..

تنفس الصبح عن شمس فاض بضوئها الدافئ أمل حياة.

يجرُّ حنون خطاه بعينين ناعستين، وخمول ينشط شيئاً فشيئا، وهو يباشر فرم حبات الحمّص لإعداد عجينة الفلافل، ومن ثم يرتب المحل ويعد سلطات الخضار المعتادة، استبطأ خليف الذي كان سباقا في مسح زجاج العارضة وواجهة المحل وكنس ما حول الدكان، ما عدا النار– نار القلي– فهو لا يقربها ولطالما أكثر من كلمته الشهيرة: إلا النار.!

حدّق حنون بباب الحجرة الذي كان مفتوحا بشكل جزئي، اطمئن بأن خليف قريباً ما سيملأ المكان بالحركة، ونغماته المجنونة التي لا تنتمي لأي فئة موسيقية... أكمل الجزء الكبير من العمل، والتحق به باقر.. الا خليف لم ينر المشهد بعد. فدلف حجرته، كانت الحجرة خالية إلا من بعض أكوام الملابس البالية، وجذاذات الصحف، وشعفة شعر كثيفة، كانت كعش للصراصير، التي تصول وتجول وحدها بين بقايا فتات الفلافل والخبز.

استغرب حنون وخرج مسرعاً، ينظرُ في أقصى الشارع وأدناه، يطيلُ النّظر في الأزقة القريبة منه. إن الأمر لا يبشر بخير أبدا، لا يبشر بخير.! هكذا كرر قوله.

ومن ثم التفت إلى باقر قائلاً: لا أثر لخليف، اختفى خليف.!

ترك باقر ما بيده من عمل، وأخذ يفتش بالحجرة، فوجدها على ما وجدها صاحبه، وعاد إلى حنون. قائلاً: طلب مني أمس حلاقة شعره ولحيته.

يصوّب حنون نظرة استغراب: وبعد.

أخبرته أني لا أجيدُ الحلاقة، وقلت له سأنادي لحنون يتبنى ذلك. لكنَّه أبى وقال: (إنها ليلة الجمعة وأبو العبد يحتفل مع زوجته). فجلبت ماكينة الحلاقة خاصتي، ونتفته نتف الدجاج.

حنون يعاجله: أكمل.

طلب مني غسيل الدهون ليستحم به وفعلت و.. و..

– قل، بلا واوات.

استطرد باقر كلامه: طلب مني كل ما في الدخل، النقود كلها، ما عدا الخردة.

– وأعطيته.؟

هز رأسه ايجاباً دون ان يحر بكلمة.

حنون بفورة غضب: زدني، أشجيني.

باقر باضطراب: طلب نسخة أخرى من جريدة الأمس.

– ماذا.؟! ما المهم بجريدة الأمس. ائتني بنسخة منها.

أجابه باقر برأسه بالنفي

أدار حنون ظهره، وهو يضرب أخماساً بأسداس: عاشت يدك.

وهام على وجهه، وهو يردد: (أنه أمرٌ دُبر بالليل).

**

نزل الخبر على أم حنون كالصاعقة، وأخذت تضرب الودع، وتفتش بالمرايا، وتعزم بأسماء سريانية، وتنجّم، وتقرأ (الطاس) والقرطاس.. ابنها اختفى – هكذا كانت تسميه – ابنها الذي لم تلده، أكثر من عشر سنين بكنفها، وفي رعايتها وحضانتها، حضانة المجنون السنة بسنتين وأكثر؛ إذا لم تستنفد العمر كله. بكت، وأبكت الصغيرين هند وإدريس، وهي تولول ولولة الثكلى.

بينما كانت هنيّة تتشفى بلوعة خالتها، تظهر وجهاً، وتبطن وجهاً. وهي تقول في سرِّها: يكفينا مجنونة واحدة في البيت – إشارة لخالتها.

لم تتمالك أم حنون نفسها، وأخذت تدق بيوت الجيران بيتاً بيتاً، وإن كانت متيقنة في أعماقها برحيله، طوع نفسه.. لم يكن في الأمر مخطط مسبق أو تدبير يشي بالاختطاف أو القتل، كما كان يعتقد حنون.

هذه طبيعة الأمور الكل يعود إلى أصله طال الزمن او قصر، واستذكرت شريطاً طويلاً من الأحداث الغابرة، حكاها خليف بأسلوبه العابث، منها حكاية التسفير القسري، قال: منذ تسفير اليهود قسراً من العراق أبأن أحداث فلسطين في الخمسينيات... ومن ثم تسفير ذوات الأصول الفارسية إلى إيران بداية السبعينيات حتى أوائل الثمانينات... وبعد أحداث حرب الخليج الأولى، وما أعقبتها من انتفاضة شعبية كانت شرارتها مدينة البصرة، توعدت الحكومة العراقية الشعب البصري بالتسفير إلى هند لزعمها بأنهم من أصول هندية؛ لولا أن الظروف السياسية وقتذاك كانت أقوى من المقرر... أما (السمر) كما كان يتندر خليف بنعتهم ضاحكاً: لا أعرف إذا كانت الحبشة سترحب بكم، كما فعل الملك النجاشي بالمهاجرين الأوائل... أم أنكم ستُعبئون كسلال الكرنب والبطاطس في عربات الرق ذات الأقفاص المُحكمة والإطارات الخشبية، يُباع ويشرى بكم في روما في سوح المجالدة ووسط وغرب أمريكا في مزارع القطن ومعامل التسميد.

هكذا كان يمازحها خليف في آخر أيامه ويضحك. كأنها كانت واحدة من علامات التلويح التي غفلت عنها، أو أن أسلوبه الفكاهي ومرحه

العبثي أفقدها المغزى وتتبع الأثر. ناحت وصوتت: إلا ابني... إلا خليف.

وظل حنون هائماً لا يدري ما يصنع، ويسأل من، أي العناوين يمكن أن يستدل بها، وأي الطرق يسلك للوصول اليه.. فظل عالقاً بين صراخ أمه وبكاء ولديه.. انطلقت الزوجة ببهجة لا تكاد تخفى تعد الغذاء، وهي تتلمظ بشفتين سوداويتين ملطختين بالشماتة.

**

صدى الصوات والزعيق ينبعث من بيت حازم، صراخ صبيحة بدا بأنغامه المختلفة المألوفة وغير المألوفة... دلف من كان حاضراً الى البيت سريعاً – فزعة رجل واحد – دفعوا الباب بقوة هو ذات الباب الصدأ المتأرجح.. كان حنون اول المتدافعين بالدخول. وإذا بحازم قد برك على جسد زوجته، وانهال عليها بالضرب لكماً وصفعاً، ولم يتوان بالركل بركبته على صدرها.. فرفعه حنون بمعية باقر وبعض من حضر بقوة مجتمعة.. وما زالت يديه تطوح بالهواء، ولسانه ينطلق بالسباب: سرقتني العاهرة، محفظتي مسدسي، يا عالم حتى بطاقتي الشخصية، لا أدري من ضحك عليها من أغواها؛ العاهرة بنت العاهرة.

دفعه حنون بقوة عنها وسلّمه بيد الآخرين، وخرج هائماً على وجهه، وفيه من الشك ما فيه.. أيكون خليف فعلاً من سرق المال والمسدس.؟

لا، لا أصدق ذلك. بينما كان صراخ صبيحة تصدو في مسامعه: بريئة والله بريئة، ما كنت لأسرق زوجي؛ ولن أفعل.

ورجع حنون متفكراً، كاد رأسه أن ينفجر من الصراع في داخله، الشك بدأ يتغلغل في أنفاسه، لا يجد متنفساً غير الصراخ.. ولج حجرة خليف وغلق الباب عليه، وصرخ بأعلى صوته... قعد على السرير بعينين مغمضتين ما أن فتحهما إذ لمح خزانة الملابس مشرعة، كما رآها من قبل، الا هذه المرة وجد رصاصة مسدس مفردة اوقفت على كبسولتها بشكل عمودي كأنها تنذر بتهديد ما، قد وضعت على صورة امرأة. كانت مقتطعة من جريدة دون اسم أو عنوان.. تبدو صورة المرأة مألوفة بشكل ما، كأنها مسؤول سياسي لتواجدها خلف منصة إعلامية بين الميكروفونات.

سحب الرصاصة وضعها في جيبه، وأخذ الصورة؛ وفي نفسه ألفُ سؤال، لسوءِ حظّه أن لا أحد بإمكانه الإجابة عنها سوى خليف.

لم يسبق لحنون ان شاهد الأخبار، أو تابع السياسة ولو من بعيد، وغير معني بالمرة بمن حكم البلاد العباد.

عجز حنون من صدِّ الأفكار السوداء التي اقتحمت عليه سكينته، وهدّت قواه، خاصة أنّ الأمر بدا مخططاً له بالكامل، بمعنى جريمة محاكة بخطة محكمة مع سبق الإصرار والترصد. ولم يلتفت إلا بدخول

حازم عليه مغضباً مقطب الوجه: أين خليف.؟ اريده حالاً. وأخذ يفتش حتى المراحيض.

حنون بمواربة وتمويه: مالك وخليف.؟!

حازم بعصبية: لا تتحذلق براسي، أريدهُ الساعة حياً كان أو ميتا.

فدفعه حنون عن وجهه بقوة وخرج. تبعه حازم بغضب: إن لم أجده سأخبر الشرطة.

ضحك حنون ساخراً: تخبر الشرطة.! بأنك تملك مسدساً غير مرخص، ليعلم كل صاحب دم في الحي بالأمر، فيطالبك بالقصاص العادل.

تراجع حازم ولكنه ما زال يكابر: سأقتل خليف السارق.

حنون بامتعاض: ان وجدته فافعل.

ظلّ حازم مندهشاً مستغرباً مفكراً بقوله: (إنْ وجدته، إنْ وجدته، أين اختفى، أين).؟!

علت الشمس وحدها في كبد السماء، وظلّ الكلُّ متسائلاً، واجمي الوجوه نافثي الحسرات.

**

قبل بضعِ ليالٍ من الحادثة...

كان حنون قد ابتاع بنطالاً جديداً وقميصاً وحذاء لخليف، وكذا ملابس داخلية من محالّ شارع الوطن العامرة بكل ما هو راق وغالٍ.. حتى عندما اعترض حازم بتفضيل سوق (المغايز).

رد حنون قائلاً: يستحق خليف الكثير، وبالتالي فإن أمي لم تقبل إلا بأفضل الملابس.

ظل حازم يتغرغر في الكلمات، ويجمجم في نفسه: (لو أنهم ربوا حمارا لكان أفضل وانفع).

وظل حنون يحاكيه بهمس، كتوارد نوايا: (ما أكثر الحمير من معارفنا وجيراننا).

بينما ترك خليف الحبل على الغارب، وراح يتفرج لذوقي صديقيه حنون حازم، ودائماً ما يرجح رأي صاحب المحل بحكم خبرته الطويلة... فاعترضه حازم: صاحب المحل يروّج لبضاعته، وخاصة البضاعة الفاسدة، ففرصة البيع على الجهلة هي الفرصة الأفضل لكل كاسد.. بينما تذكر حنون مقولة ابيه: (اشتر من البائع البائس).

على الرغم من قناعة خليف بصحة هذا الرأي، إلا أنه أصر على رأيه؛ مبرراً ذلك بسوء اختيارهما.

كانت ليلة استجمام وتغيير جو، بقدر ما أبهجته ثارت استغرابه. خليف في الكورنيش، بملابسه الرثة القديمة، وشعره الكهفي، يتمشى بين صديقينِ لم يهتما أبدا بالموضة، ولم يكترثا بكل هذا الجمع المكتظ لمناسبة ودون مناسبة.

كان عطر الشّط يعبق بالرطوبة، ودخان النرجيلات يمتد على امتداد الكورنيش... الكل يبدي نشاطاً بالحركة والفعل والقول، هذا يتغزل، وذاك يكذب، وهذا يحدق بالآخرين، وبائع المكسرات أفسد الرصيف، وجوالٌ يدور بأكياس غزل البنات، واخر يشعل السماء بالألعاب النارية والبالونات... حركة دؤوبة في كل مكان، زحام المارة والعجلات، يتخللهم عمال النظافة المستلقون هنا وهناك، وآخرون يجمعون اكوام القمامة والاتربة لتبعثرها اقدام الزحام ونعل المتعثرين الكافرين بالحطام، ولسان حالهم يؤكد (لم يكن المجتمع نظيفا ما لم تكن الحكومة نظيفة).!

وبين من يتأمل قوارب الصيد الصغيرة والابلام العشارية التي تمخر الشط بنزهة ما بين القصور جنوبا الى ميناء المعقل شمالاً، ينزل الراكب متأففاً لكثرة الغوارق، ويواسي النوارس حزنها، وهي لم تجد مكاناً آمنا في كلا الضفتين وراء ما يسمونهم بالمراهقين واطفال الحصى المتلذذين بإسقاط أكبر عدد من الطيور، (لم يكن عداء متجذراً مع الطيور بقدر ما هو نزوة مستفحلة لطفل لم يجد غير متعة المعارك).!

استوقف خليف تمثال الشاعر الكبير بدر شاكر السياب، ومن حوله شباب وشابات يلتقطون صور (السّيلفي) بضحكاتهم الناعمة الرقيقة، ما تنم عن روح شاعرية تمارس طقوس الحب بكل أدب، وضروب من مواعيد التعارف، تنشط على حسِّ المكان.

سأل حنون حازما: أتعرفه.؟ في إشارةٍ للسياب.

وكيف لا، أشهر من نارٍ على علم. هكذا أجاب حازم باندفاع ومفهومية.

– لم أعهد أنك تعرف الشعراء.

– ومن قال لك أني أعرفه. سكت وهو يشاهد ملامح الاستغراب على حنون. واستطرد: الحقيقة كنت ذات يوم أساوم على سعر البرونز؛ كان سعره رخيصاً وقتها.

حنون مستغرباً: تساوم مع مَنْ.؟!

حازم بسذاجته: مع بعض التّجار.

تمدّد وجه حنون، وتدلت (برطمتاه) انبهاراً.

لَحَظ حازم ذلك. فاستأنف الكلام: لهم وجهة نظر في إنزال اصنام الكفرة عن وجه حرمة الشط مثلما حدث مع القادة الآخرين.

عقّب خليف بامتعاض: هي المرة الأولى بعد النهضة الصناعية في أوروبا التي انتصر بها الفلاسفة والمفكرون على الكنسية والملكية تنتصر الثقافة في بلداننا على العسكر، بعدما سقطت كل أصنام الحروب ظل السياب شامخاً مغرداً للوطن. ويوماً ما سيسقط كل تاجر راهن على مآسي ودماء الشعوب مهما طال الزمن.. المشكلة أن التجار في بلداننا يتلاعبون بالسياسيين، كما يتلاعبون بأسعار البيض والصابون، فلا يغسل الشعب وجهه الا بصابون رضاهم، ولا يفطر إلا ببيض هواهم... للأسف أنَّ هناك من يظن أن السياسة تفسد التاجر لكنَّ العكس هو الصحيح.

يعجز حنون عن محاكاة ما يرمي اليه خليف، إلا أنه اقترح عليهما الذهاب لحديقة الحيوانات. ضحك خليف بحالة من التهريج والهستيريا: حديقة الحيوانات.! حيوانات.! يكفينا حازم الحمار وزوجته أم جحش، وزوجتك القرد، هؤلاء يمثلون حديقة متكاملة المعالم.

فجابهه حازم عابثاً: وأنت من تكون.؟

أنا.. أنا، بدا يجمجم خليف. وفي وسعه أن يقول، ويقول الكثير، لكنّه لم يهتد للصّواب.. فضحك من بين اسنانه، وهو يردد: ابن الكلب.. ابن الكلب.

ظل حازم مستغرباً، لا يدري ايهما المقصود.!

*

للماضي دُخانٌ أصفر

أسرِ وقمرٌ لك.

هكذا كان واصل خليف خطواته، مطلقاً للريح قدميه، بعد أن حالفهُ الحظّ أخيراً، أو ظنّ كذلك. بعد أن تعرّف على قاتله، وتذكّر بعض الأسماء، أو بالأحرى الوجوه. كانت صورة (سميّة) هي من قدحت بذاكرته بصيص نور لماض اسود عقيم.. سمية السبب الرئيس بالإيقاع به، ورميه وراء الشمس كما قالت بصريح العبارة، هددته، وتوعدته؛ ونفذت.. لما لأبيها من سلطة في جهاز الأمن، السلطة الأعلى بالأنظمة الشّمولية، التي تواجه الآخر بقوة الكرسي، بعيدا عن عدالة القوانين. أي قوانين.! وكلها تخدم (فردة) السلطة، على حساب (فردة) المجتمع العسراء... القانون يقرر مصير الشعب (إذ لا مصير للشعب سوى الانصياع التام للسلطة).

سأجهز عليها. كان جل تفكيره – الغائب أو المؤجل في دهاليز الذاكرة الظلماء – سأقتلها وأفجع بها أباها الكلب، سأثأر لعمري لسّني السجن لسّني الجنون؛ سأرميها حقيقة وراء الشمس. أين يكون ذلك؟ أينما كان؛ لست أدري.!

لا يتذكر الكثير، لكنّه اهتدى إلى أنّ صاحبة الصّورة، النائبة عن حركة قوى اليمين (سمرقند مال الله) هي سمية ذاتها.. لا يمكن أن ينسى وجهها مهما دهسته السنون، تغيير اسمها لا يعني أن تفلت من العقاب، منذ متى كانت مهتمة بالشعب حتى تكون من قوى أنصاره.! إلا إذا لم أكن واحدا من الشعب. إلا أن المبادئ تغيرت بتغير الزمان؛ لكن الانتقام سيبقى ما بقيت.

استطلع الكثير من الأخبار، وتأكّد مِن عنوان مقر الحركة، وأنه سيراقب من هناك، وينفذ في أقرب فرصة مواتية، لم يتوان ولم يتقاعس من الأخذ بالثأر، ولو كلفه ما تبقى من عمره.

لاحت بوجهه لافتة كوفي شوب (الملكة) فأعادت لنفسه نسمة ذكريات، كانت في طيِّ المجهول. كان هذا الموقع مشرباً، ولطالما ارتاده مع خُلص أصدقائه، لم يكن ليشرب عدا الجعة، المشروب الأرخص الذي يناسب دخله.. ففكر متأملاً (لو أنه كان يرتاد هذه الحانة، فلا بد أن يكون بيته على مقربة منه، أو على الأقل عمله، أو دراسته).. ربما يجد بعض أصدقائه، أو هو يحتاج إلى واحد منهم لا أكثر؛ ينعش ذاكرته... حتى وإن كانت ظروف البلد قد تبدّلت، وتساقطت حكومات، وهالت أهوال الحرب، وأحرِق الأخضر واليابس. لا يعني أن كل أصدقائه، ذهبوا بالأرجل بين فكي طواحين الحرب.. حرب البطولات والعنتريات الصدامية، وما تلاها من حرب إرهاب وطائفية.

رمق كلباً يركض مسرعاً ويتلفتُ، وهو يجتاز ما بين السيارات، وبلاطات الأرصفة المهدّمة هنا وهناك، اعترضت سرعته شجرة زينة وحاوية قمامة فتعثر وكاد يسقط لولا أن تماسك، وسار سيراً خجولاً، توقف عند دكان للجزارة، كان يعرض اللحوم في عارضة زجاجية كبيرة، تأمل كثيرا، نبح بهدوء تدرج صوت نباحه أعلى فأعلى، خرج الجزار بصدريته البيضاء المتسخة بالدم وشلو اللحم، ورمى بعظمة قاسية كأنما جردت بمصقلة نجار مبدع، شمها الكلب، عوى وأنف أخذها، فهي لا تستحق جهد المجازفة والنقل، واقفل راجعاً، يقطع الشارع المزدحم بالعجلات، يفزع عند صوت كل بوق؛ حتى اختفى بين الطرقات.

ثمة شاب يعمل بائعاً جوالاً للسجائر، كان يشاهد الموقف من زاويتين الكلب وخليف قائلاً: يا عم هذه الحالة تتكرر كل يوم.

التفت إليه خليف باستغراب: كل يوم.

الشاب يؤكد: نعم كل يوم تقريباً، إذا كان ابن الجزّار موجوداً فهو يعطي هبرة لحم للكلب، أما إذا كان أبوه فأما يعطيه عظمة كما رأيت، أو ينهره.

زاد استغراب خليف المتصاعد: ربما الأبناء أكرم؛ ربما.!

**

دلف خليف في مقهى الملكة المقلة بالزبائن، إلا من بعض المواعيد.. كان الوقت ضحى، قرقرة النارجيلات تزكم الأنوف، وكرات البلياردو تصدّع الرؤوس، وصوت هنا وصوت هناك.. تقدّمت إليه النادلة وهي فتاة شابة يافعة، ترتدي زياً رجالياً موحداً مع كادر المقهى، بيدها دفتر صغير للطلبات: تفضل أستاذ، شاي، قهوة، نسكافيه، كابتشينو، شيشة.

بدا على خليف الخجل، فهو لم يعهد هذه الأسماء الملتوية. قال: شاي، إذا أمكن.

سكت بعينين ناطقتين، يحدّق باسمها المكتوب ب-(باج) معدني - بطاقة تعريفية - نحاسي اللون على صدر قميصها، كان تكور النهد قد دفع به إلى الأعلى، ومن دون شعور قال: نهدك.!

باستياء ردت: العفو...

- أعني (باجك) التعريفي.. اسمك (غسق). هل تعرفين معنى اسمك.؟

حدجته بنظرة استياء، ما اسكت فضوله وتطفله.

- ولا أنا.! هكذا تدارك سؤاله.

حاولت الانصراف. تابع سؤاله: أريد ساندويتش شاورما.

التفتت إليه، لا نقدم الساندويش هنا، فقط المشروبات.

– لكني جائع، جائع جداً.

وقف عليه صاحب المقهى، بسياسة البائع وخبرة الإدارة وحكمة السنين: بالخدمة أستاذ.

فصاح لأحد العاملين: فرج.. فرج، اذهب اشتر للأستاذ ساندويش شاورما. والتفت لخليف متسائلاً: العفو أستاذ شاورما دجاج، أو شاورما لحم.

خليف يتفرس بوجه صاحب المقهى، وتذكر أن يؤكد عليه فصاح بالنادل: فرج.. فرج، إلا الفلافل.

تناول الساندويتش بقضمة كبيرة، وهو يحتسي الشاي مرة، وتارة يفرغ عبوة الماء بجوفه، ويتلفت بين الوجوه كالقط المذعور الذي يحرص على طعامه.

كانت ضحكات النادلة (غسق) تقض أحاسيسه، تستفز قواه الخابية.. أول مرة بعد أعوام طوال، يحسُّ أن ثمّة حركة تدبُّ في أعماقه، تفعمه الحياة حد الترنح.

**

مضت الساعة تلو الساعة، ولم ينته خليف من طلب الشاي كوبا بعد كوب، وفي كل مرة يحتسيه ساخناً دون مبالاة، فحركات غسق فتحت

شهيته على التحديق بها جيئة وذهابا، وهي تتنقل من طاولة إلى أخرى ومن عابث مرة إلى عابثة مرات.

كان مدير المقهى ينظره من دُرجه المكتبي الكبير، المزدان بشاشة كاميرات، يراقبه بشدة، ويراقب حركاته.. خاصة أن خليف عكف على جريدة وجدها على إحدى الطاولات، تناولها وانهمر بحلِّ الكلمات المتقاطعة.. بينما ظل صاحب المقهى يستعيد شريطاً طويلاً من الذكريات. وهو يقول: (إنه هو، هو بلا شك).! هكذا يصيح بسريرته.

ترك دُرج الحساب ووقف عليه، وقد أسند ذراعيه الموشومين على الطاولة: واحدة بأفعى ملتوية، وأخرى برسمة ضاعت ملامحها لكثرة الرسوم. كما توحي خياشيم سمك القرش بالعمر كانت الوشوم توحي بعمر السجن. قال: حضرتك عصام فاضل زحلة.؟

استغرب خليف وهو يهز بكتفه نفياً، حتى عندما وجد اسماً، ربما اسمه أو اسم غيره، كان اسما قبيحا؛ زحلة.! يا لحظي السيء. كان يولول بسره.

ونجّم بعيداً (ماذا لو علم حازم أن لقبي زحلة.! يا ويلي؛ لكنت سخرية الحي).

وما زال صاحب المقهى يحدق بوجهه متفحصاً، منتظراً جواباً. لكن صمت خليف بدّد التوقعات؛ ما دعاه للاعتذار والعودة لمكتبه.

وكان ثمة رجل بهندام وقيافة رسمية مرتدياً بذلة راقية، فضلاً عن استوائه بين زميلين، وترجله بالحديث.. بينما يبادله زميلاه الصمت والتأييد، وهو يمعن النظر حد التفحص والتحديق في وجه خليف أكثر من مرة.. وقد شاهد موقف صاحب المقهى، وتذكر وقع الاسم.. وكان كلما أصطدم نظره بنظر خليف أعرض إعراضاً هادئا، عاد لزميليه المترقبين. قال: أنا أعرف هذا – مشيرا بإخفاء إلى خليف – إذا لم تخني الذاكرة.

فنظر الزميلان بشكل غير إرادي. استطال أحدهم النظر به، وهو يسترجع ذكرى قديمة. قال: أظنك يا سيدي تعني مجنون ليلى.!

المسؤول مستفهماً: أي ليلى.؟

صمت الزميل مطأطئ الرأس، كأنه قال شيئاً خاطئاً، عجز عن لملمة الموضوع. لكنه ما أن رفع رأسه، وجد المسؤول محدقا به، كأنه ينتظر إجابة، فقال: أعني مجنون (سمية) بنت...

دون أن يكمل. هزَّ المسؤول رأسه بالإيجاب.

بينما كان خليف يسترق السمع بشكل عشوائي، قدحت في مداركه لفظة (سمية) فانتفضت أحاسيسه، وأرهفت مسامعه؛ ارتبك وهو يرى الكلمات المتقاطعة والحروف تتقلب وتتطاير في مخيلته، وتتبعها الجداول والصور، بما في ذلك العناوين العريضة الطويلة غير القابلة للهضم.!

يبتلع منها ما يبتلع، ويبصق الآخر؛ ويحتسي عليها الشاي الساخن بجرعات سريعة حد التأوه.

تساءل الزميل المستجد الذي بدا أكثرهم شباباً: ما الحكاية.؟

نظر المسؤول بوجهه مطولاً، وهو يختلسُ نظراتٍ خاطفة لخليف الذي تماهى بقراءة الجريدة والعوم بالذكريات، وقد أطلق العنان لحواسه باستراق السمع في آن واحد.

المسؤول لزميله الأول: أتظنه هو.؟

بلى، وان تغضنت أسفل عينيه وجفنيه، فهو لم يتغير كثيرا؛ اظنه هو إذا لم أجزم.

ازداد استغراب الزميل الثاني وتطفله، ليعرب عن أسفه: إذا كان الموضوع خاصاً، فاسمحا لي بالانصراف. وقام من كرسيه..

فبادره المسؤول: اقعد. لا خصوصية في الموضوع.

فغر فاه وهو ينتظر سماع الحكاية، فقد كاد الفضول أن يقتله.. فهو شاب طموح يتحين الفرص، وإنَّ أية معلومة صغيرة كانت أو كبيرة قد تخدمه في عمله؛ فكانت عيناه تتوثب المشاهد كلها.

لوّح المسؤول بيدهِ لصاحب المقهى: أبو فراس، لو سمحت.

صاحب المقهى وقف بالحال بين يديه: تفضل استاذنا ابا سيف.

فأشار إليه بهمس- إلى خليف: أليس هو.

مالَ صاحب المقهى برأسه الكبير ولغده يتدلى، وهو يهمس: سألته ولم يجب؛ وبدا مستغرباً مندهشاً؛ لكني متأكد إذا لم أكن متيقناً بأنه هو.

اكتملت الحكاية عند خليف، وبدت رسم الخطوط البيانيّة واضحة لديه، تأكّد بدوره من اسمه الجميل ولقبه القبيح (عصام فاضل زحلة) وعرف ان هذا اللقب لم يكن فعلياً بقدر ما كان حركياً.. لكن أين يذهب به ذلك.؟ وهل الاسم يكفل له شيئا في معرفة نفسه.؟ لكنها أفضل من لا شيء، وبدا مطمئناً بأن الخيوط التالية ستأتي تباعاً؛ أو على الأقل أنه بالمكان الصحيح.. بذل خليف كل ما في وسعه لاسترداد جزءاً من الذاكرة المغيّبة لمعرفة المتكلم، فلابد أن يكون ذا صلة ما في هو عليه اليوم، لكن الذاكرة أبت ان تسعفه. فلم تكن خيانتها الأولى، وبالتأكيد لم تكن الأخيرة.

وتابع أبو سيف المسؤول حديثه: كان من أذكى الشباب الذين عرفتهم، لكن بعض الذكاء وبال على الإنسان، كان استاذاً جامعياً وباحثاً وكاتباً ومحاضراً في أروقة علمية عدة، بل وفيلسوف زمانه بمعنى الكلمة.. لكنه كان يتبنى فكرا وجوديا مناوئا للدين والوطن، ولمّح مراراً وصرّح تكراراً بذلك، فما كان ليشغل بال الحكومة، ولا كان للحكومة شغل به.. حتى وقع المحظور وتعرض لبنت مدير الأمن...

- بنت المدير... المدير، المدير.!!

نعم بنت المدير، كانت شابّة يافعة، واحدة من أجمل الطالبات وقتها، لم يتوان من استغلالها أبشع استغلال.

الزميل الأول متداخلاً: قيل إنه اغتصبها.

كاد خليف يتقيأ دماً، شعر بمغص يقطع الأمعاء، وهو يتلوى من ألم مفاجئ، إذ لم يكن من أثر الصدمة.. الصدمة في نفسه أكثر من كل شيء أن يكون استغلاليا ومغتصباً فهو في حال لا يحسد عليه أحد.. بم يفرق عن قذارة حازم، وكفر حنون؛ لِمَ ينكر على الناس افعالاً وهو اسوأ فعلاً وحالاً من الجميع.

فأمسك به النادل وأسنده، وسارع إليه صاحب المقهى أبو فراس واحتضنه، وسأله فيما إذا كان يحتاج الإسعاف، لكنه رفض ذلك وبرر بأنها نوبة طالما تكررت.. لم يجد سوى الحمامات متنفساً ليستفرغ الألم بالصراخ، يحاكي المرايا ببراءته: لَكَم ستر عليّ قناع خليف من أن أكون ابن زحلة المغتصب للصبايا.. فيلسوفا، أية ترهات هذه.! أي فيلسوف أحمق هذا فاقد لروح الإنسانية.

وراح يندب حظه، ويتفحص وجهه في المرآة، لمح صورة غسق التي كانت وراءه، وهي تعيد ترتيب ملابسها بسرعة كبيرة، وتصفف شعرها بأناملها. إذ خرج شاب من المراحيض مسرعاً إلى الخارج دون أن يكشف عن وجهه.

وقع بصره على سيجارة كانت موضوعة على رخام المغاسل، ما زالت تنفث جذوتها بخيط دخان رفيع... نظر خليف بوجهها، اجابته بابتسامة مُصطنعة تنم عن طاقم تلطخ بأحمر الشفاه: هل تدخن.؟

حاكاها بهمسٍ: (لا زلت اتنفس دخان الماضي، بحاضر أصفر، ومستقبل اسود).

*

للصبحِ ليلٌ آخر

ما أجمل الجنون عندما يكون بجواز وتخويل حكومي..

انطلق خليف هائماً على وجه لم يدر أية وجهةٍ يقصد، وأنَّ ما عزم عليه وجاء لأجله، كان مجرّد نزوة انتقام، لم يعرف حقيقتها، لكنه بدا يعرف ان لم يكن مجنوناً بالمعنى الحرفي، فهو فاقد الذاكرة.. أو هو غير مؤهل لاتخاذ اي قرار، ما اضطره للتريث وعدم الإقدام على أية خطوة غير مدروسة، فإن كان مغتصباً كما يقال، فقد نال جزاءه العادل، وهذا العمر الضائع والألم الذي تكبّده كان مستحقاً وجزاءً وفاقا، ولعله كفارة لخطأٍ جسيم او جريمة لا تغتفر.

وبدا يدور حول المنطقة نفسها لعلّ هناك صديقاً أو معارف، أباً أو أما، أخاً او أختا، هل يمكن أن تكون عائلته انقرضت بالكامل.؟ هل يبدو كواحد من سلالة الديناصورات المنقرضة.؟! هل يمكن أن يكون (فاضل زحلة) اسماً حقيقياً او شخصاً وهميّاً لا أساس له، ولمَ لا فالحكومة تختلق ما تشاء وقتما تشاء. هكذا أجاب نفسه، معللاً ما حاق به من ظلامة.

قعد على الرصيف المُترب وحقيبته بين رجليه، مطأطأ الرأس، تنخر الأفكار دماغه، وترديه الظنون في غياهب التيه.

وقفت عليه (غسق) وهو كالمغشى عليه، دون أن يشعر، مسّدت شعره بأناملها الرقيقة، رفع رأسه بشكل آلي وببطء، نظر بوجهها: غسق.!!

لم تتكلف عناء الإجابة وهذرة الاسئلة، قالت: تعال معي.

دون شعور انطلق بلا كلام، لا يهمّه المقصد، وغير آبهٍ بالنوايا، شيءٌ ما حمله للسير؛ إلى أين.؟! عسى أن يكون إلى جهنم. هكذا كان جوابه لنفسه رادعاً للخوف واسئلة التقصي الجبانة.

دلفت به في دروب فرعية، مردومة بالصبات الكونكريتية، ثم فتحت باباً وعرّجت سلماً مظلماً انتهى بها إلى شقة صغيرة بأثاث منسق بلمسة خبير، ذات غرفة صغيرة وصالة واسعة بمطبخ غربي مفتوح الجانبين وحمّامات من رخام؛ استلقى على الأريكة وكان بوده أن ينام نومته الأخيرة.

قالت: إن شئت خذ حماماً حتى أُحضّر لك العشاء.

لم يقل سوى كلمة واحدة، فلتت من لسانه: الشاي.

دلفت المطبخ، وهي تضع الماء في الغلاية وتهيئ أكواب الشاي والسكر.. سألته من داخل المطبخ: ألم تخف مني، ألم تسمع بالمتاجرة بأعضاء البشر، وقد اكون سارقة أو قاتلة.

أعرض عن إجابتها، فالخوف آخر غريزة حيّة فيه.. استبطأت إجابته، فحدجته بنظرة رضا: لدي بقايا كعكة وعصائر جاهزة.

نظر إليها دون أن يبدي ردّاً واضحاً.. فوضعت عبوة العصير مع قطعة الكعكة بين يديه، وعيناه لم تنفك ترنو إلى قرقرة غلاية الشاي.

**

خشخشة مفاتيح، قفل الباب يفتح من الخارج..

القادم أسوأ هكذا كانت الأفكار تعصف في مخيلته، وإذا بطلّةِ صاحب المقهى أبي فراس.. تبادلا النظرات ومن دون تحايا ومقدمات، قال: اترك الكعكة، طلبت لك عشاء خاصا. هكذا بادره.

لم يجبه، لكنه تراجع الى الخلف على الأريكة، وقد افرد ذراعيه على طول الاريكة، وارخى وكامل بدنه.

جلس أبو فراس بمحاذاته بابتسامة تنم عن طاقم مصنّع نضيد، متسائلاً: أين كنت يا رجل.؟

كان الصمت سيد الموقف، فهو لم يدر أين كان، وإنْ كان يعرف الأرض والمكان، فهو لا يعرف موقعه من الإعراب.

قالوا إنك مِتّ أو بالأحرى تم اعدامك. هكذا استوضح الأمر أبو فراس.

لم يتفاجأ خليف بذلك، فالأمر عنده سيّان، حياً كان او ميتاً، فهو عاش السجن والنفي، وعاش الجنون والوحدة والضياع؛ فكيف يكون شكل الإعدام إذاً.

يستثير أبو فراس الصمت، ويحرك مكامن الوجع: أُمك لم تتأخر كثيراً بعدك، فقد ماتت قهراً. وتوقف يتأمل في وجه خليف، الذي بدا كدمية لا حراك لها ولا صدى، واستطرد: اختفى ابوك بسنين بعد أن بدد كل ثروته على الخمر – عرق الزحلة – حتى لقب به.. يعاقر الخمر مساءً حتى يصحو الضحى، ويعود ليعاقرها مرة أخرى حتى يمسي، ويسكر ليسب ويذم كل من جاء على لسانه بلا استثناء.. سأمت الشرطة من ضربه وحبسه كلما تطاول عليهم، ولم ينفك يفعل ذلك. كانوا إذا أطلقوا سراحه، خرج وهو مدمى ومعذب لا يقوى على المشي والقعود.. أراني مرة كيف أحرقوا عجيزته بالمكوى؛ حتى بدا يتهكم أنا ودبري نسكر من قنينة واحدة.! يحتسي منها ما يحتسي، وما تبقى يعقم جروحه.. طلب الموت على أيديهم مرات ومرات لكنه لم ينله، كأنهم اقسموا على عقابه بالحياة مع التشرد والجنون.! ابوك كان يتمنى أن يقول لك كلمة واحدة..

فقاطعه خليف بعد صمت مميت: ماذا سيقول لي، غير أنه سيبصق بوجهي، وينعتني بالمغتصب القذر، الابن الداعر؛ وهذ اقل ما يمكن قوله لي.

ربّت أبو فراس على كتفه بهدوء تام: مَنْ قال لك ذلك.؟

سكت خليف وهو يتوقع الأسوأ، بينما استطرد ابو فراس القول: بل سيقول لك...

طرقات الباب، يقطع الكلام، يدلف أحد الصبية عامل التوصيل، محملاً بأكياس الطعام المعبأ بعلب كرتونية جميلة، وصحون بلاستيكية جاهزة، وضعها على نضد صغير كان بالقرب من الأريكة، كانت رائحة الطعام زكية تفتح الشهية.. فتح أبو فراس كرتون البيتزا الساخنة ودفع بها إلى خليف، قائلاً: كُل.

كان قد أكل من الألم والذكريات المريرة، فما يمنع ان يأكل من الالم اللذيذ؛ ويمسح يديه بالحائط.

**

أبي فوق التراب، أم تحته.؟ تساءل وهو يزدرد قطع البيتزا، وقطعاً من صاج الشاورما، دون ان يلتفت بالوجوه.

لا أحد يعرف. كان رداً قاسياً على سمعه.. واستطرد أبو فراس القول: لا أثر له، سألنا كثيرا عنه، ربما مات في هذه الأحداث الطاحنة، فهو حتى عندما سقط النظام لم يتوان ويتقاعس بإكمال رسالته وما بدأ به.. كان دائماً ما يقول:(حكومة فاسدة، حكومة قاتلة).

حتى عندما كان يتبجح أحد ضباط الأمن بأن الدولة هي الجهة الوحيدة المخولة في تهديد الآخرين، وهي من تملك الوصاية المطلقة على الشعب.. كان يردُّ بشجاعة فارس: شعب خراف وحكومة داعرة.

قد مسّه شيء من الجنون؛ وقيل الكثير. كنت أنت أكبر أمانيه، قال: (سأترافع عن ابني وأخذ له بحقه، انصره وانتصر به لكل المظاليم).

رمى خليف قطعتي الطعام من كلتا يديه وانتحب وبكى، هي المرة الأولى التي يجهش بالبكاء.

وأكمل أبو فراس الحكاية: كان يقول ما لم أر جثة ابني فهو حي، وعندما سقط النظام وفتحت السجون، كان يتنقل من سجن إلى السجن، يبحث في السجلات ويسأل القاصي والداني عنك.. كنتَ حديثه الذي لم ينته، وخمرته التي لم تُسكر.. لم تُفتح مقبرة جماعية، الا وهو اول الحاضرين يفتش الهويات والالبسة، كان ما زال يذكر لون قميصك وبنطالك، حتى شكل الحذاء.. وكلّما عاد خالي الوفاض، كلما ازداد اصرارا على أنك حيٌّ تُرزق.

من حسن حظه أنه كان يحظى بجِيرة محترمة وقفوا على خدمته ليل نهار.. حتى شيخ الحي كان دائما ما يزوره ويوصي به خيراً، حتى أتهم بأمره، وكثر عليه اللغط فهذا يصفه بنديم السمر وذاك يعزوه الى رجال الأمن والتحري، واعترض من اعترض عليه زاعماً أي رجل دين هذا ينصر خمارا وينتصر له.. لكن الشيخ جابه كل قوّال ومفتر: لا خير بدين بلا إنسانية، ولا خير بإنسانية بلا رحمة.

سمعت مرة انه مرض مرضاً شديدا، وما عاد يقوى على الخروج من البيت، فعدته وهو طريح الفراش. فقلت له: أهذه النهاية يا صاحبِ.؟

ابتسم قائلاً: ليتها كانت القاضية.

قلت ممازحاً: ربّما ستلتقيه هناك – كنتُ اقصدك.

فكرّ طويلاً وقال: سأعاتبه كثيراً، وأعانقه كثيراً؛ وأموتُ من جديد.

**

عليك أن تقاضي جهاز الأمن، عليك أن تثأر لأبيك وأمك بالقانون..

كان يدعك شفتيه بقوة، كأنَّ هناك ما علق بها من بقايا الصلصات واللحم المتبل.. رمق غسق فسأل: أين الشاي.؟

فدلفت سريعاً إلى المطبخ.. طبطب أبو فراس على فخذه، قائلاً: استرح الليلة هنا. استحم ونم، ولنا في الصباح حديث – وهو يشير لرنين هاتفه النقال الذي لم ينقطع.

وثب خليف من مكانه كنابض انزلق: سميّة.! ماذا عن سميّة.؟ غيرت اسمها صحيح، كما غيرت شكلها.

أبو فراس مستغرباً: ماذا.؟!

– سألتك عن سمية، فأنت تعرف القصة كاملة.

أجلسَ أبو فراس خليف لجانبه وبهدوئه المعتاد: لماذا تقول غيّرت اسمها، وهل من السهل نزع الأسماء وتغييرها.

خليف بسرعته المعتادة وكأنه يحاول القبض على السؤال: اسمها سمرقند مال الله.

ابتسم ابو فراس قائلاً: بدايةً سمرقند الأخت الصغرى لسمية، أمّا سمية فقد انتقم الله لك منها، ولعائلتك، فقد ابتلاها بسرطان الدم – كما يقولون – على خلاف أكثر من قائل بأنها مصابة بالإيدز، أكل المرض جسدها حتى ماتت بلا زواج؛ بالنهاية عدالة السماء طُبقت عليها بالتمام والكمال.

لم يفرح كثيرا بعدالة السماء، كما كان يأمل ابو فراس، فأكمل: وكذلك قُتل أبوها في أحداث تصفية المسؤولين من طرف الجانب الأمريكي.

لم أرض بهذه العدالة ابدا. هكذا أعرب خليف عن مكنونه، واستطرد: قد يُعوّض العمل بعمل آخر، وربما يُعوض الام والاب بخلف صالح وزوجة صالحة، والمال يصنعه الانسان، اما العمر فلا عودة ولا تعويض، والعقل لا بديل عنه؛ قد سلبوني كل شيء.

قام ابو فراس وضمّه إلى صدره، وقبّل جبينه، وهو يربت على كتفه: استرح الليلة، سألتقيك غداً. البيت يتصل بي، انظر المكالمات تتواصل. (كان رنين هاتفه مستمراً). ثم أكمل: وهذه (غسق) ستكون بخدمتك.

رنَّ في غور أغواره هاتف الرغبة والمنى: (يا للكرم. ربما في غسق الفتاة، أو غسق الليل بعض العزاء).!

أشارت إليه بالاستحمام، لكنه كان آخر تفكيره. هو في دّوامة من صراعات شتّى، لا يدري يسلم لمن، ينتصر بمن.. وبين الفينة والفينة تلوّح له هذه الأنثى الملائكية متوجة شفتيها بابتسامة باذخة؛ استأذنته وانصرفت للفراش.

ران الصّمت على الموقف، استلقى على الأريكة وفي قلبه منها شيء، لكنه عاد يعزّي نفسه: للصبح ليلٌ آخر؛ وربّما فراش أجمل ونومٌ عميق.

عامت شياطين الأرق في مخيلته، تقدح بعزيمته، تلهب نار الانتقام؛ حتى سرقه النعاس.. استوطن الشخير جثته المكوّرة، فوق اريكةٍ بالكاد تستوعبه.

**

انفجرت الشمس بضوئها النافذ الحار على المكان..

استيقظ خليف متأخراً، الساعة الجدارية كانت تشير للثانية عشرة وعشر دقائق، ما كان الوقت ليعنيه بشيء.. الشمس تكشف عن نهار يوم جديد، والليل بسكينته الحادة يقطع اليوم لشطر مظلم. هكذا يفهم الحياة بتراكم الأحداث السوداوية.

كانتِ الشّقةُ خالية من الحياة تماماً، نظر في أرجائها متفحصاً: (ثمّة مَن كان هنا بالأمس، أم لا زلت احلم.! الشقة مكان جديد على مخيلتي، إذاً ثمة وقع جديد لحدث واقعي.. المقهى، الرجل السمين المكور الذي يتطوّح بثقل وزنه، رأيته البارحة، كلمني كثيراً، عن ماذا لست أذكر.! كانت هنا فتاة جميلة، اذكر أن اسمها ذميم لا يليق ببهائها.! اظنها سرقتني – وهل املك شيئاً – بلى، رأيتها فعلت. كانت قد فتحت حقيبتي، رأيتها تسحب المسدس، المسدس.! نزعت المخزن منه، تأكدت من الرصاصات المصطفة في طابور منتظم؛ أعادته.. صوبت بصرها بالأوراق النقدية؛ أغلقت الحقيبة، ثم ما لبثت أن عادت، فتحت الحقيبة، وأخذت حفنة من الدنانير، أخذت أم سرقت ليس ضروريا.. لكني أذكر ذلك جيداً، ربما أخذت مبلغاً مقابل المنام، المنام وحده، وماذا يكون غيره.؟ كم أنا مجنون؛ إذا كنت أفكر بشيء آخر.!

خشخشة مفاتيح، القفل يتنفس، الرتاج ينزوي، يُشرّع الباب وهو يخطّ بالسيراميك، تندفع جثة طرية، بأكياس بلاستيكية ملونة، وبابتسامة عريضة كعرض الصبح، وضعت الأكياس على النضد: صباح النور.

انها فتاة الأمس، تبدو لي أحلى من الأمس، حتى أجمل من الصبح، تعبق بالنور، برائحة يوم سعيد.

لم يتمالك نفسه، وثب من مكانه، وألتف وراءها كثعبان، طوق عنقها وصدرها بذراعيه، وأغدق عليها بالقبل، بكل ما تطول شفتاه من جسدها

الغض.. لم تبادله سوى صمت القبول، وهي تستشعر حرارة انفاسه، وقبلاته العشوائية اللاهثة، النابعة من تيه وحرمان.. وضعت كفها البض الناعم على شفتيه المهووستين بالعض، وأوقفته؛ ومن ثم نزعت ذراعيه بهدوء تام عن جسدها المترع اليانع للقطف.

نزعت الأكياس عن صينية مغلفة بالقصدير الخفيف، كشفته بمهل وإذا بسمكة مسقوفة تفوح بعطر دجلة، قدمتها لمفترس نهم.. وكشفت عن قدرية جاهزة كذلك من القصدير للاستعمال الوقتي، وكان خليف يتأملها بشغف. فكانت معبأة بالدولمة الموصلية وهي تعبق برائحة التوابل والخضار وأضلاع لحم الضأن.. فعاجلها رغم سخونتها وبدا يلتهم القطعة تلو القطعة، بينما ما زالت الفتاة تُجهّز الاطباق الاخرى من المقبلات، وتهيئ عبوة المشروبات الغازية مع قدحين من الكرتون المقوى الجاهزتين للاستعمال السريع، وقطع الخبز. ولأنَّ الطعام بعضه أشهى من بعض، ظل يتنقل من طبق إلى آخر.. وما أن شعر بوقوفها إزاءه، وهي على ما تبدو من حسن كأنها (الطبق الأشهى) قال: اقعدي، كلي، كلي معي.

قعدت وهي تنظر ليديه التي بدتا كمن يضرب على آلة الطابعة القديمة (تك.. تك.. تتك.. تك) تتنقل من طبق الى آخر، وهي معرضة عن الطعام، كأنها توفر له مساحة من الراحة والتلذذ بالأكل، قال: ما اسمك.؟

قالت بغنج: سجى.

نفض يديه بطريقة عبثية، وارجع ظهره ليتماسا بالأريكة، وفي داخله تنخر آفة الهبل والاستخفاف: ما هذه (السينات) الغبية التي تزدحم في مخيلته، وبدا يشعر كأنه عرضة للخداع، وأنه واقع بفك متاهة؛ إذا لم تكن مكيدة سلب ونصب، وربما متاجرة بالأعضاء. سبق وأن سمع هذه الكلمة التي ما زالت تطن بأذنيه طنين الذباب. لكنه لم يذكر من قالها، وفي اية مناسبة قيلت.

وعاد الى الفراش يطبطب على جثته الخاملة، كمن أُشرِب النوم بجرعةٍ زائدة؛ وهوى.

*

جدرانٌ بلا أمل

قام من فراشه كسولاً خاملاً كالمثقل بالتخدير، يمغط بيديه كالمطاط على طولهما، يشمّر بقدميه المنكمشتين، يهزُّ كتفيه بديناميكية تصاعدية، يثني بدنه للأمام ويستوي، ثم كررها يميناً وشمالاً؛ كأنه يمارس التمارين السويدية.

نظر للصّالة بدت مختلفة، اختفى المطبخ بين من اختفى، والصالة بدت خالية من الأثاث، ما عدا سرير خشبي، وطاولة صغيرة.. كأنَّ الجدران غُلّفت بمعدن فضي، وثمة لوحة جدارية ثلاثية الابعاد، متشابكة الألوان كالمتاهة، النظر إليها يرهق البصر الكليل.. وثمة نافذة طويلة عريضة بستارة آلية الحركة، كانت الشمس تشق الزجاج، وتتخلل بين أصداف الستارة اللؤلؤية اللون.

اندفع للنظر من وراء النافذة على العالم الخارجي، ثمة باحة كبيرة بحديقة عامرة بالأشجار والازهار، بالنجيل الأخضر المنبسط على طول المنظر.. وثمة موظفين وموظفات يتنقلون من ردهة إلى أخرى بزي واحد

ابيض اللون، وبحركة دائبة.. كأنها مستشفى. لا، اظن انها كنيسة تؤدي طقوسها الرتيبة.. ربما مركز أبحاث. رجال فضاء. مختبر بايولوجي؛ ما الذي يحدث.؟!

هكذا ثارت ثائرته، وبدا يصوّت ويزعق بأعلى صوته.. الصوت لا يتجاوز الحنجرة، بدا مكتوما رغم انفعاله بالصراخ، يبحث عن باب، عن منفذ، الزجاج محكم، الغرفة تبدو كقبر، أو كقبو، أو كبئر؛ جدران ملساء بلا امل، بلا كوة، بلا أكرة باب.

قد تكون مشفى من نوع آخر، ثمة عبوة ماء، وقدح صغير بداخله حبة دواء صغيرة الحجم، كانت المتاح الوحيد الذي يمكن أن يدخل جوفه ويغذيه.. الشعور بالجوع بدا يربكه، ويزيد من رعشته، وضع الحبة بين أسنانه، واغرقها بجرعة ماء كبيرة.

كل شيء تلاشى إلا هو، لا ساعة جدارية ولا مذياع، لا قنينة اوكسجين، لا مبضع، لا مشرط، لا لفافة ضماد؛ ولا لفافة تبغ.

عاد للنافذة الزجاجية، اختفت الحديقة الكبيرة، كصورة تم حذفها. ليعم بعدها ظلام دامس. أحس بالرعب، واتاه شعور خافت، بأن ما يحدث لا يعدو إلا أن يكون حلما تافها.!

لكنه ظل حائرا متلبداً بين زحام هواجس، متسائلا: ما هذه الحبة التي تقلب النهار ليلا، وتقلب الليل عناقا.

وبدا مفكراً: (من أين كانت البداية.؟ وكيف تكون النهاية.؟ كم هو طويلٌ هذا الحلم؛ ربّما حتى أطول من الموت الذي ينتهي بنفخة).

**

في مقهى الملكة توجد ملكة واحدة، رآها وآسرت قلبه بصدق، باشرها العناق، لمسها، تحسسها، أكل من يديها، سألها اسمها فأجابت..

كانت البسمة لا تفارق محياها، طرية كالروح، عذبة كالصبح، مشرقة بسحر جسد أخّاذ، كانت صالحة للمغامرة والرهانات الكبيرة.. لكن صورة اليوم ليس هي بالأمس، فتاة تتخطى الحواجز، تضاحك للجميع، تعاجل بتنفيذ الطلبات، تشرأب لها الأعناق، هذا يناديها: سوزان. وذاك يدلعها: سوزو. وآخر يناديها من الرواق البعيد ويختزل أسمها: سس.

ما أشد وقع (السينات) على مسامعي، كم أنا غبي كذلك أقول: مسامعي، بل الأحرى أن اقول أُذني كأذني الحمار. ذكرت الحمار (فهاجت روحي ولعاً وشوقاً إليه).. ثمة حمار آخيته، نمت معه في حظيرة واحدة، واكلته بحب، كان يتلمظ ببرطمتين سائبتين.. لكني كنت أفوقه سرعة، كثيراً ما رفسني بقائمه رفسة ممازحة، فأشغله بقبضة شعير؛ والتهم الباقي.

لكن كم من حمار رفسني ذلك اليوم، وبال علي، لأني قلت كلمة صحيحة في مكان خاطئ، وفي وقت ضائع.

ما زلت أذكرها (سمية) سأنبش قبرها وأبول على رفاتها.. لا، لا. قد يتهموني باغتصاب جثة.. الإعلام الحكومي يعيش على التهريج، وهذه مادة ساخنة، معدة لكل القنوات الأرضية والسماوية؛ المشكلة ان قدرات الإعلام الحكومي نافذة متنفذة بإمكانها مخاطبة العالم الآخر.

قطع سلسلة أفكاره، ظهور المسؤول الأمني السابق وزميليه، أو بالأحرى حاشيته.. جلسوا على نفس الطاولة بمحاذاته، وكان المسؤول وجها لوجه معه، التقت نظراته المتفرسة، بنظرات المسؤول الهازئة الساخرة، لكن هذه المرة كان المسؤول متحفزاً على الشر، أو محتاطاً ومتيقظاً أكثر، ما دعاه لنزع مسدسه من حمالة جلدية، ووضعه على الطاولة؛ تحت قبضة يده اليسرى.

ما دعا خليف للتفتيش عن حقيبته الصغيرة، وحمل المسدس في حال نشوب أية مواجهة، لكنه لم يجد الحقيبة، فهاجه الأمر وأشعل جذوة غضبه الخافتة، وبدا يفتش تحت كل طاولة قريبة.. لجأ على الفور إلى صاحب المقهى أبو فراس، لم يكن نفس الرجل الذي عرفه بالأمس، فسأله: أين صاحب المقهى.؟

- أنا، تفضّل.

- لا، لا. أسأل عمن كان هنا بالأمس.

بشيء من الاستغراب، أجاب: هو أنا من كنت بالأمس، وقبله، وقبله..

- لا، لا. أنا اسأل عن ذاك الرجل البدين صاحب اللغد.

هز الرجل رأسه، وأشار بيدٍ مستفهمة.

صاح خليف بصوت مسموع: لا تتذاكى عليّ، أنا أذكر، أذكره جيداً، اسمه، اسمه...

حتى لمح صورته على الحائط البعيد، وأراد أن يشير إليه.. لكنه توقف، عندما رأى الشريط الأسود يحتل الزاوية اليسرى من الصورة. لولا برواز الأبنوس كان عارضاً؛ لقطع السواد مساحة أكبر تمتد على طول الجدار.

**

كلانا يحتلُّ زاوية أُخرى في الحياة، قد تكون في عين ذبابة منشغلة بالحلوى، أو في خرمِ إبرة صدئة..

انطلق خليف يحدثُ نفسه، ويداعب وساوسه: (بلا مجهر رأيته الأمس، كلّمني مِن بين من كلّمني، بل وحدّثني كثيراً، واساني في نفسي بمصابي، عزاني بجهلي.. لربما قمّة جهلي، هو أني لا أدري أن كنتُ حياً كما الخلق ينعم بالحياة، أم ميتاً لفظته الاجداث لمزبلة الدنيا).!

أذكر ثمة حكاية، حكاها لي رجل مؤمن بالغيبيات، لم استوعبها، وعندما استوعبتها، لم أصدّقها، وعندما صدقتها كان قد فات الفوت.. فأقسمت ان انساها ولا أعيد سيرتها. لكن لِم ذكرتها الساعة، أثمة ما يدل على أني استعدت ذاكرتي. أم أنني أهذي.؟ ويلي كم أنا ثرثار وكاذب.!

كم أنا ساذج وتافه، عندما أؤمن بأنَّ الاخبار الغيبية كلها واقعة، لظنّي أنّ الكاتب اعتمد نمطية دراما موحدة – دراما رائجة – مع تغيير طفيف بترتيب الفصول والوجوه.

لم أدرِ لما أنا أتكلم كثيراً، ولم أدر غايتي من ذلك.. إلا أنّ المشاهد بدت مشوشة.. نزعت نظارتي التي كانت ضعيفة البصر. الحق إني لم ألبس النظارة مطلقاً. كنت ارى كل الأشياء بوضوح تام.. إذا كنتم تريدون الحق والحقيقة. لكني لا اريد الحقيقة، اتمنى ان انزعها كثوبي البالي. اريد ان اعيش الكذبة الكبيرة، كذبة الحياة؛ أو على الأقل أن اعرفها بشكل منطقي.. وإذا شئتم أن أخبركم الحقيقة المطلقة. فأنا لا أحب الحياة، احبُّ الكذب والخيال.. كنت شاعراً ذات يوم، وعندما اعتليت المنصّة، كنت بلا قصيدة، فطلبت من الجمهور أن يصفّق لي؛ ونزلت).

كانت المقهى تعجُّ برائحة الفواكه العفنة، والتبغ الفاسد، وغلالة الدخان كبالونات الأعياد، إلا أنها تختفي بلا فرقعة.. وتلك (السينية) المليحة تخطف الابصار والالباب، اسميتها السّينية لأنَّ الكل يُئسئس باسمها، حتى انا الذي ألثغ بالسين لثغة دلال؛ اتغنج بها.. بدأت أُثأثئ،

حتى عندما سألتها عن حقيبتي و(مثدثي) و(فلوثي) ضحكت (ثوثو) ضحكة نكراء، وقالت: (مثدثك) بين فخذيك.

أرعبني ذكاؤها بنت (الابالثة).

وبتُّ أفتش بين فخذي، فعرفت أني بلا..... حقيبة.

وفي الزاوية الأخرى، كانت أبواق القطار تزعق بالرحيل، وتشرخ هامة المشهد؛ وتنطلق.

**

إن كنت أحِبُّ الحياة فإني أُحِبُّها لأجلكِ، وأكرهُ كلَّ ما سوى ذلك..

هكذا كنت أسمع صوت أبي يتقلقل في غور ذاتي، يتسلل ناحية فكري، وضواحي أحلامي. وأرى أمي التي بدت أجمل من قبل، وأرق بكثير.. اذكر انها كانت مُدرسة، معاون مدير، وكانت مُجهدة أكثر الأوقات، بين التدقيق ومراقبة التدريس، ووضع الدرجات والجداول، ومشاكل المراهقات التي لم تنته.. اذكرها جيدا عندما كانت توبخني: انت كبير. (كأنها لم تدرِ أنَّ الحمار أكبر).!

أنا كبير.! عساني ما كبرت، ولا درست، ولا عشقت، ما يعني أن أكون كبيراً في عالمٍ كلما نكبر فيه نصغر ونُحتقَر.! والمشكلة أننا نكبر فجأة، وبلا تدرج.. انت تدرس، انت تعمل، انت تعشق. واحياناً انت تعمل انت تعشق انت تفلس؛ حياة بأنماط غريبة.. أن تعيش بين عائلتك اليوم،

وغدا تعيش بين عائلة أخرى. تُبتلى بمسؤوليتين: العائلة الأولى التي رمتك بأحضان العائلة الثانية، وفرضت عليك اتاوة الطاعة لها. والثانية التي لا ترضى أن يشاركها بك ثاني؛ مهما كانت سلالته.

مازلت أرى أمي، التي لم أرها منذ أمد بعيد، ترشقني بالقبلات، أقول لكم بصدق، بصدق لا أحب قبلاتها، كثيراً ما كانت توبخني: متى تتزوج، نريد أن نرى عيالك. واقول لها بسري: أنت رأيتِ عيالك؛ ماذا جنيت.؟

ظلي اللصيق بدا غبياً وطائشاً، يبادلها القبلات.. وإذا ثمة صوت ينادي: أتركوا الظل يعبر بسلام.. أما أنا فأشاروا إلي أن ارموه من مكان سحيق إلى الدنيا.. اتشبثُ بظلي اصرخ: لا تتركوني دونه، أريد معه، فقد بلغت من العمر ما يحزن العمر؛ وحيداً بين أترابي. فما جدوى أن أبقى بلا ظل يساندني وفيء حبٍّ يعاضدني؛ والشمس في بلدي تصعق العراة.

أنا أعرفُ وأعلم جيداً أنّ المجنون يموت باكراً، فخفتُ أن أكون عاقلاً، وأُعذّب بالحياة.!

**

أخالُ الشوارع ممتلئة بي، إلا أنا وحدي تائهٌ لا أملأ عيني..

تطالعني الوجوه بإشفاق وعطف، ووجوه أخرى باستغراب، ووجوه كالحة كوجهي ترمقني بسهام الحقد.. في كل عواصم دنيا البشر يكون الرأي في القرارات المصيرية رأياً واحداً، إلا هنا الكل يبغض الكل. كُثَرت

الأحزاب والزعامات وتباينت الآراء، وزادت النحل والمِلل؛ الا ثمة رأي واحد يتصدر الموقف (الكل على خطأ ما زلت أنا صح).

ما يحدث غريباً جداً، الكل يجيبني بألقاب علمية، أستاذ، دكتور، بروف، وأتساءل: كلها ألقابي.!

أضحك عندما أتذكر مقولة أبي، وهو يسمع القاب النيافة والسيادة، ساخراً: (كله تهريج حكومي).

دلفت للمقهى، وإذا بالحاضرين مشكورين، استقبلوني بالتصفيق والصفير، وثمة من يرشقني بقبلة هوائية كقبلات أمي الجافات الباردات.

بدأت أشك هل أنا أنا، أم أن الجمهور أخطأ المقصود.؟!

جلست على طاولتي المعتادة، اندفعت نحوي فتاة (ما عدتُ اعرف اسمائهن) يبدو لي كلها أسماء مستعارة، قالت: شاي طبعاً.

نظرت بوجهها، كان وجهاً غريباً لم ألفه من قبل، تبدو أصغر سناً من زميلاتها، بملامح فاترة، ووجه ثلجي؛ ينقصه شمس البصرة وملحها.. بقدر ما كنت اخط بأوراق وجهها بصري، بقدر ما كانت تمسح أوراق وجهي بنعلها (كأنها تبادلني اللامبالاة بشكل اوسع) عرفت عندها كم أنا حقير، وعديم الانسانية؛ عندما أذرعُ قياس المرأة بأبعادها المادية على الفراش الخلوة، دون قياس معنوي.

جلب أحد النادلين الشاي: تفضل أستاذ، العفو دكتور. وانصرف.

صحتُ به: تمهل كيف عرفتني.

ضحك ببلاهة (وكأنه يقول لي لست الوحيد أبلها) قال: انظر التلفاز، الا تملك نقالا.؟

حان دوري بالضحك، ضحكت ضحكة بلهاء، هي ضحكتي التي لم أملك سواها، قلت: مالي ومال التلفاز.

قال وهو يهزُّ يده بوجهي: أنت حديث الساعة، التلفاز، اليوتيوب؛ شبكات التواصل الاجتماعي.!

ترسخت في ذهني مقولة أبي (إن التهريج الحكومي كفيل برفع قامتك، وأن كنت أقزم الأقزام).

**

واجهت التلفاز وجهاً لوجه، وفارساً لفارس.. كانت الشاشة تنتقل من أغنية لأغنية، ما كنت أعلم قبل اليوم أني مغني، ولا اجيد العزف حتى يُحتفى بي.. الرقص ممكن لخلوه من قواعد وضوابط كونه فن جسد يشي بالفتنة والاغراء، ولكثرما رقص على جثتي من رقص؛ فما كنت سوى خشبة مسرح.

أنظر للـ(تايتل) العاجل تلو العاجل، كلها قلوب حب، تطابق نبضات، أسماء رمزية بوجوه مختلفة. عادت الفتاة النادل التي لم أقرا

اسمها، أو على ما تبدو أعرضت عن ارتداء باجها التعريفي؛ من المحتمل أن تكون جديدة، قالت: بم اخدمك سيدي.؟

قلت: لم اناد عليك، لكنك مازلت جئتِ، اريد شاي، ولو أمكن سيجارة.

قالت: لا نبيع السجائر في المقهى، إلا إذا كنت ترغب بنارجيلة.

لا، لا. هكذا أجبت. (أكره رائحتها، إلا النارجيلة) واستطردت: خذي لي من اصدقائك، من أي أحد.

دست يدها بجيب بنطالها الضيق، أخرجت علبة السجائر شبه خالية الا من بضعة سجائر، باتت السيجارة الواحدة منحنية الظهر، قالت: كله لك. وانصرفت.

صحت بها: القداحة.

رجعت، وأخرجت من جيبها الآخر قداحة، ووضعتها على علبة السجائر. وهمّت بالانصراف، مسكت يدها: ما اسمك.؟

نظرت بوجهي نظرتها الشحيحة، وقالت: سوسن.

ضحكت بسماجة ونزق، ضحكة تافهة خجلت من نفسي للفور وازدريتها.

قالت بعتاب: أفي اسمي عيب ما.

اعتذرت، واعتذرت حتى راودني الشك أني بكيت. وكنت أتمنى لو أقبلها وأسترضيها، حتى أنَّ وجهها البارد كان بنظري أشهى الوجوه.

وإذا بالنادل يداهمني بقرقعة الصينية على الطاولة، وهو يشير لي على التلفاز؛ أنت في الأخبار.

كانت المذيعة تتغنى بالفضائح كالعادة: سُرِب فيديو مصور لمسؤول في جهاز الأمن السابق وهو يعترف، ان مديره كلفه بتعذيب البروفيسور (عصام فاضل عماد الزاهي) الى درجة الجنون والاخصاء. وإليكم نص الاعترافات المسربة بالصورة والصوت..

لحظات ويبدأ بث الفيديو، لكن اللحظات بدت صامتة، والوقت يمضي، والمذيعة تنتظر.. لكن سرعان ما تداركت الصمت، لتعرب عن أسف القناة: نعتذر لهذا الخلل الفني الطارئ، سنوافيكم حال جاهزية المصدر، وإصلاح الخلل.

بدا التهامس هنا وهناك، بينما كان الكثير من المشاهدين يتشمم رائحة المصادرة.

وقفت الفتاة النادل عليه، اخذتْ منه علبة السجائر، التي لم يدخن منها سيجارة واحدة، والزناد الفارغ، والشاي الذي لم يشربه بعد.

**

صحا خليف في غرفة البئر، أو الجحر، أو كما أطلق عليها غرفة المتاهة الخالية من الأبواب، ما عدا زجاج النافذة المعتم.. وهو يسمع صوتاً أنثوياً ناعماً يدغدغ المشاعر، وهي تكلم شخصاً آخر: كن دقيقاً في نقل الاخبار، لم تكن الحكومة هي من أرسلته للعلاج في الهند، هذا الكلام عارٍ عن الصحة.. الحقيقة أن صاحب المقهى هو من تبرع بإيفاده للعلاج في الخارج على نفقته الخاصة، بما في ذلك أجوري واتعابي كاملة، إن شئت انقل هذه المعلومة عن لساني.

نهض خليف من سريره، وهو يحدق بوجه انثى فاتنة مرتديةً زي المسعف الرسمي، صاح بها: النادلة، انت النادلة؛ تذكرتك.

ابتسمت ابتسامة خافتة: أنا الدكتورة (علا).

ضحك ضحكته الماجنة الساخرة: (انا المجنون صرت بروفيسور، كيف لا تكون النادلة دكتورة. علا، لعل، عسى، كلها اخوات أنّ؛ اسماء تمني ورجاء.. هكذا هي الألقاب تباع بالجملة، كالنقالات الجديدة، كالسيارات الضاربة بالأسعار والمواصفات، كالبيوت الفارهة المصادرة من مسؤول سابق الى مسؤول لاحق؛ كالمجانين).

عدت أعرف كل شيء، ولا أعرف شيئاً.. اختفت الدكتورة فجأة، كأنها طيف شبح، كالوهم؛ مثلها مثل كل من التقيته.

فتش الغرفة لشعوره بالإعياء والغثيان، الجوع يزيد من قرقرة بطنه، كقرقرة النرجيلات في مقهى الملكة.. كانت عبوة الماء وحبة الحياة كما

تصورها سابقاً موضوعتان على الطاولة.. ماذا لو امتنع من تعاطيها، ربما هي من أربكت عوالمه، هي من أولجته في متاهة المتاهات.. التفت الى لوحة المتاهة، كانت قد تغيرت الى متاهة أخرى، كأن اللوحة (ثيمة) على شاشة عرض كبيرة تتغير تلقائيا. حملق بالشاشة يبحث عن طريق ينفذ منه لكنز العقل المفقود، لماهيته الغامضة. وان كان الكنز آخر همه. (أن اغبى ما في علم النفس، أن يمنيك ما لا تتمنى). هكذا علق هازئاً بكلِّ العلوم وكلِّ كنوز الدنيا.

تناول الحبّة، وأغدق عليها بجرعة ماء واحدة وثانية وهو يشعر انها واقفة بالبلعوم، ولما دفعها بالماء قال: حتى حبة الحياة، لا تريد لي الحياة؛ هكذا عندما يعاكسك الحظ.

وجد نفسه يتجوّل في الشّوارع ذاتها، وهو يلحظ الكلب ذاته يعبر الطريق المزدحم بالعجلات بتؤدة، وأخذ يتخطى المارة، وهو ينظر بالوجوه، غير مكترثٍ كالليث بين سائر الحيوانات.. وقف عند دكان الجزارة طويلاً، استبطأ الهبات، سرعان ما ثار على الذلِّ، برك على عتبة باب الدكان؛ وبال.

*

وعيدُ مجنون

لا أصدّق أنَّ أحداً سيعتني بي أكثرُ مني...

هكذا ردَّ خليف على جمعٍ من الإعلاميين، وحقوقيين من لجان التحقيق بجرائم النّظام السابق، كانوا قد عرضوا عليه الفيديو المسرّب، والذي امتنعت وسائل الإعلام المرئي والمسموع من تداوله لأسباب مجهولة؛ عزا الكثير من المراقبين ذلك بالتستر المشترك بين الفرقاء السياسيين لحساب تبادل المصالح.

لا أحد يشكُّ أنَّ فضائيات الفضائح المنتشرة في كل مكان، تعتاش بالدرجة الأولى على الممول الداعم داخلياً كان أو خارجياً وفق اجندات معدة سلفاً وخرائط مرسومة الاهداف والابعاد بالمواقيت أولا بأول. أكثر من اهتماماتها بالإعلانات التي توشك أن تكون معدومة، وأن وجدت فهي لا تشكل سوى نسبة ضئيلة في رصيد القناة.! فمن يهتم بمجنون عاد إلى رشده، او ميتاً استأنف الحياة بقرارٍ غيبي، لا تعدو إلا أنْ تكون من حكايات ما قبل النوم التي يقطع النعاس ذروتها؛ وتُنسى.

شاهد الفيديو أكثر من مرة ومرتين وأكثر من مشاهدته، وثارت بداخله ثائرة الغضب التي سرعان ما تراجعت؛ وخفتت تدريجياً الى أن ذوت واضمحلت كل الصور بعينه.. قرأ التعليقات الداعمة والساندة من جهة، بينما كان الإنكار والاجحاف يغطي اغلب الجهات. وهو يدرك أنَّ

أهواء الناس لا تُسبر أغوارها.. ثمّة من يتفلسف بتسميته ب- (المغتصب البريء). وقول ينكد الحياة وينغص العيش (يستحق وأكثر). وقول لا لهذا ولا لذاك يبرر ب- (كان من الماضي) و(الخطأ وارد، وجل من لم يخطئ). كلها اقوال وردود افعال وتراجم وأنصاف قرارات، لم تتوخ الدقة، ولم تُبن على اسس قانونية؛ حتى بدا تائها لا يدري أي الأقوال أقرب للصواب.

سأوضح لكم خلاصة الفيديو. هكذا أعربت محامية المجني عليه (عصام فاضل عماد الزاهي) المشهور ب- (زحلة) التي اوكلت نفسها بلا توكيل خطي أو شفهي..

قاطعها خليف: من أنت.؟

مدّت يدها للمصافحة: أنا المحامية (سمر الوادي).

كان لهذا الاسم صدى في ذاكرته الفارغة، فأطبق صامتاً يعوم في بحر من التداخلات.. سحبتْ يدها بعدما لمست الاعراض عن مصافحتها، واستطردت بالمرافعة بين حشد غفير من الناس: خلاصة الحكاية. أنَّ أستاذاً جامعياً، راود إحدى الطالبات عن نفسها فاشتكت لأبيها الذي كان مسؤولا بأجهزة الدولة العميقة - كانت تصرُّ على هذه المفردة بدل الأمنية - ما دعا المسؤول لاتخاذ حكماً نافذاً دون الرجوع لقوانين العقوبات الجزائية فضلاً عن الاعراف السائدة بإخصاء المتهم،

ليجعل منه عبرة للآخرين مغتصبين كانوا أو متحرشين؛ وتعد هذه العقوبة سابقة خطيرة من نوعها في البلاد.

صاح بها خليف: من أوكلك بهذه الدعوى.؟

طأطأتْ رأسها لشعور انتابها بعدم القبول، قالت: هيئات حقوق الإنسان.

أعرض بوجهه عنها، وهو يتلفت بشكل عشوائي؛ ما شتت انتباهها.

تابعت المحامية المرافعة الشفوية: من المؤسف أن تكون فنون الجلادين قد تخطّت الحكم والمحاكم، إذا لم تتخط قوانين العقوبات الجزائية والدساتير.. فعمل أبو سيف مسؤول قسم النشاطات السياسية المعادية على بثِّ روح الرعب والخوف وزعزعة الثقة في نفس موكلي، ما بلغ أقصى غايات التعذيب النفسي حدّ الجنون. ولم يكتف بذا، فقد تم زرعه في بيئة أخرى بعنوان (مخبر سري) بعد أن اوحى له بأنها الطريقة الوحيدة للتكفير عن ذنبه. وتم ذلك من خلال نزع الذاكرة ومحوها بالكامل – بطرائق لا يعرفها غير المخابرات الدولية، في تعذيب الجواسيس – وإضفاء صبغة بديلة على شخصه؛ وكأنه أراد بذلك ضرب عصفورين بحجر.

**

استوقف خليف مدى صحة المعلومات من عدمها، هل هي حقيقة مطلقة أو مجزئة.؟ فحرّض الذاكرة الانفعالية وما بقي من مواهبه الواعية،

ليستشف حقيقة الماضي.. بينما أغفل الشطر الأهم من الفيديو، عندما أكّد أبو سيف لرفاقه، ومن بينهم – العاهرة الخليعة – مسرّبة الفيديو، وهم في قمّة الثمالة، باعترافه الواضح الذي لا لبس فيه، قوله: أنها أفضل تمثيلية قمنا بها على الاطلاق، خاصة عندما ولجنا في مخيلته بثياب ملائكة الموت، وبأيدينا المقاص والمناشير، وافتعلنا صهيل الجياد النازلة من السماء.. كانت الدّراما الأكثر إثارة، وبأفضل ديكور على مستوى فن الإثارة والجاسوسية العربي (المتواضع) وقد يضارع اعمال الخيال العلمي.

قرّر خليف بعد تفكر طويل، بأنَّ المقاضاة لا قيمة لها أمام هؤلاء المحترفين، وأنَّ القتل هو القصاص العادل، خاصة وأنه مجنون بتخويل حكومي؛ فلا يمكن لأي قضاء نزيه أن يحاكمه.

فتّش عن حقيبته بحثاً عن المسدّس، فتّش، وفتّش، ولم يهتد لشيء.. غير أنهُ توّعد المخرج (المخمور) الذي اغراهُ بهذا الدّور، كما يُغرى أيّ ممثل فاشل. دون أن يلتفت للشّرط الجزائي الذي وقعّه دون علمِ وموافقة مدير أعماله، والذي ينص على التزام الطرف الثاني بإكمال الدور حتى النهاية؛ مع هامش مضلل بكامل أجزائه المقبلة.

ليست النهاية.. ما زال في الجنونِ بقية

10 تشرين الأول 2023

العراق / البصرة / التنومة

<u>إصدارات المؤلف:</u>

2- رواية سأعيد امجادي مع امرأة أخرى (مطبوعة) 2008

2- رواية صراخ الصمت (مطبوعة) 2009

3- رواية حصون الشياطين (مطبوعة) 2012

4- رواية مسافر بلا وطن (مطبوعة) 2016

5- رواية حلم الرب (مطبوعة) 2021

6- رواية الممسوس.. وأحلام بلا سقوف (مخطوطة) 2023

7- رواية الطرطميس (مخطوطة) 2024